A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

رواية

في سبيل التاج

بقلم

مصطفى لطفي المنفلوطي

وهي خلاصة رواية تمثيلية بهذا الاسم للكاتب الفرنسي الشهير

فرانسوا كوبيه

مع بعض تصرف

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

(الطبعة الثالثة)

أول يناير سنة ١٩٢٢

تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

الثمن ١٠ قروش صاغ

وأجرة البريد قرشان

811
M1

CA
848
C785pofA
1922
c.1

رواية

في سبيل التاج

بقلم

مصطفى لطفي المنفلوطي

وهى خلاصة رواية تمثيلية بهذا الاسم للكاتب الفرنسى الشهير

فرانسوا كوبيه

مع بعض تصرف

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

(الطبعة الثالثة)

أول يناير سنة ١٩٢٢

تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

الثمن ١٠ قروش صاغ

وأجرة البريد قرشان

المطبعة الرحمانية بمصر

مكتبة زيدان العمومية

811
M 91 V

اهداء الرواية

الى البطل المصرى العظيم

سعد زغلول باشا

« تشرح هذه الرواية سيرة بطل من أبطال الوطنية العالية قد »
« جمع الله له من صفات الشجاعة والثبات والعزيمة والغيرة »
« والاخلاص والتضحية ما جَمَعَ لك منها ، فائذن لى أن أهدي »
« روايته اليك ، وأن أقدِّم البطلَ البلقانى ، الى البطل المصرى ، »
« لتأنس روح كل منكما بروح صاحبه ، وان باعد بينكما الزمن ، »
« واختلفت بكما الدار ، فان تفضلت بقبول هديتى وما أحسبك »
« ضانًا بذلك علىَّ فلتكن جائزتى عندك عليها أن تشهد لى بينك »
« وبين نفسك أننى قد وضعتُ لَبِنَةً (١) صغيرة فى ذلك البناء »
« الضخم الذى شدته لامتك ووطنك ، وحسبى ذلك وكفى »

أول يونيه سنة ١٩٢٠ مصطفى لطفى

المنفلوطى

---

(١) اللبنة واحدة اللبن كـكلمة وكلم وهو المضروب من الطين مربعاً للبناء

مقدمة

لحضرة الكاتب الشهير

حسن بك الفاضل

انصرفت عقول الكتاب والمفكرين فى هذه الايام وفى جميع البلاد الى الاشتغال بالمسائل السياسية والمشاكل الاجتماعية التى أوجدتها الحرب الأخيرة وانصرفت الأقلام وراء العقول تحاول انارة السبيل لقادة الشعوب علهم يستطيعون اقالة هذا العالم من عثرته .

ولقد كان من جراء ذلك أن أُهمل الأدب اهمالا نزل به إلى مرتبة دون التى كان يشغلها فى نفوس القراء والمؤلفين فانحط التأليف الادبى انحطاطاً قد يستمر ما استمرت حالة العالم على ماهى عليه .

ولم يكن تأثير هذه الازمة الأدبية فى مصر بأقل منه فى غيرها إذ انصرف معظم الأدباء عن فنهم وعلى الاخص فى السنة الاخيرة إلى الاشتغال بقضيتنا السياسية الكبرى فانقطع ظهور الكتب الادبية أو كاد وأوشكت مسارح التمثيل أن تغلق أبوابها لقلة ما يقدم اليها من الروايات ورأت صحف الادب

أن لا بقاء لها إلا إذا ولت وجهها شطر السياسة فوقفت جل أعمدتها على شرح وتأويل ما يحمله الينا البرق من الاخبار، وبذلك وقفت نهضتنا الادبية منتظرة أن تمر العاصفة وتصفو السماء فتستأنف سيرها ويعود اليها عزها ونشاطها ، بيد أن العناية الساهرة على الفنون قد أبت أن تذبل شجرة الادب فى مصر ولما تينعْ أزهارها فلم تدع السياسة تستأثر بأقلام جميع الكتاب بل أبقت للأدب أئمة وأنصاره فلم يؤنسهم شغف الجمهور بسياسة العالم وانصرافه عن كل ما عداها وظلوا رافعين لواء فنهم فى وسط الزوابع والاعصار عالمين أن الادب أفيد غذاء لروح الأمة وعقلها وأكبر مهذب لأحساسها وشعورها

فى طليعة هذا النفر من أئمة الفن وخدامه لا أترد فى ذكر اسم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى الذى لم يبخل على قرائه العديدين بأوقات فراغه فوقفها على الكتابة والتأليف ولم تحل أعمال وظيفته الحكومية بينه وبين أن يخرج للناس بضع مؤلفات قيمة آخرها هذه الرواية الشيقة الممتعة « فى سبيل التاج » التى نقدم اليوم طبعتها الثالثة الى جمهور القارئين

*
* *

فرانسوا كوبيه مؤلف « فى سبيل التاج » شاعر عرك

صروف الزمان وجس بأصبعه مصائب الانسان فلم تزد قلبَه مناظر البؤس والفاقة إلا ليناً وحناناً حتى ان القارىء لا يرى فى شعره إلا عبرة حارة أرسلتها عيناه اشفاقاً وحنواً على الذين تخطتهم السعادة وغضبت عليهم الحياة حتى لقبه عارفوه بحق « معزى المنكودين والبائسين ، وشاعر الضعفاء والمحزونين »

ولد كوبيه سنة ١٨٤٢ ولم تمكنه بنيته السقيمة من تتميم دراسته فانقطع عن تلقى الدرس فى معاهد العلم وانصرف الى قراءة الكتب والاطلاع على أوضاع الاقدمين ، وكان يشعر بميل شديد غريزى الى الشعر فنظم منه بضع قصائد لم تصادف اعجاباً من الذين أسمعهم إياها فرأى أن النار أحق بها من المطبعة فأحرقها وطلق الشعر وهجر الادب وسعى حتى حصل على وظيفة فى الحكومة استولى عليها ظناً انه لم يخلق لصناعة القلم وان رغبته فى الشعر ماهى الا نزعة مفتون تصبو نفسه إلا مالا قبل له به ولا طاقة له عليه .

بيد أن الفطرة مالبثت حتى غلبت اليأس فى نفس الشاب فعاد إلي القصائد ينظم منها اليوم ما يمزقه فى الغد حتى وفق لكتابة « صندوق البقايا المقدسة La ReliPuaire » ونشره بين الناس فصادف رواجاً وإقبالا شجعاه على الاستمرار والمثابرة

وزاده تشجيعاً أن صارت بعض منظوماته تتلى على المسارح وفى الحفلات وما زالت شهرته تنمو حتى اهتمت بشأنه احدى الممثلات الشهيرات « مدام أجار » ورأت فيه قابلية للتأليف التمثيلى فنصحت اليه بكتابة شئ للمسرح فعمل بنصيحتها وكتب « عابر السبيل » « Le passant » وهى رواية ذات فصل واحد ما كادت تظهر حتى تخاطفتها المسارح ومثلتها سارا برنار فطار صيت المؤلف الشاب وذاعت شهرته وأقبل عليه مديرو المسارح يلتمسون منه المزيد

ومن سنة ١٨٦٨ نشر كتباً شعرية متتابعة أهمها « المودات ntimités » و « اعتصاب الحدادين » و « المتواضعون » وبعض قصص نثرية منها « المجرم » و « شبوبية Tou e une jeunesse » وكثير من الروايات التمثيلية نخص بالذكر منها « عواد كريمون Le Luthier de Grémone » و « مدام ده مانتنون » و « سيفير و نوريلى » و « فى سبيل التاج »

وفى عام ١٨٨٤ انتخب عضواً بمجمع علماء فرنسا ثم انكب على السياسة وسار فيها شوطاً بعيداً كاد ينسيه الشعر والادب وتوفي سنة ١٩٠٨ وهو رئيس فخرى لجمعية الوطن الفرنسوية

هذا ملخص حياة ذلك الشاعر النابغة التى امتاز على أقرانه

بأنه لم يقلد أحداً من الاوائل ولا من المعاصرين (والتقليد يكاد لاينجو منه شاعر من الشعراء) وبأن معظم المواضيع التى طرقها كانت إلى عهده جديدة لم يتقدم اليها قبله أحد من المؤلفين .

ولقد قال عنه أناتول فرانس ما معناه :

« ان نفثات قلم هـذا الشاعر قد أثرت فى جميع القلوب وتمكنت منها ، لان أساسها الطبيعة ، وأحسن مايبرع فى الكتابة عنه ويصل فيه الى أعلى طبقات البلاغة ما كان له مساس بالمشاعر والاخلاق الاعتيادية والحقائق الواقعة ، وهـذا النوع من الكتابة لا يتيسر إلا لاصحاب الاذواق السليمة والذكاء المتوقد الخارق وهو يحتاج الى مهارة فائقة وبراعة زائدة ، فان أقل خطأ فيه لايلبث أن يبدو للعيان مجسما وإنه وإن كان فى استطاعة كل انسان مهما كانت منزلته من العلم أن يفهم هـذا الشاعر ويتأثر بأغراضه ومراميه ولكن لا يستطيع أن يسبر كنهه ويتذوق طعم أدبه إلا من رزق حظاً وافراً من العلم والذوق السليم ، وبالجملة فقراء هـذا الشاعر العظيم كثيرون جداً ومن جميع الطبقات ولكن قراءه الحقيقيين قليلون »

* * *

أما رواية « فى سبيل التاج » التى نحن بصددها فمأساة شعرية تمثيلية وضعها المؤلف فى سنة ١٨٩٥ وأراد أن يجارى بها عميدى الشعر التمثيلى فى القرن السابع عشر كورنى وراسين وهى رواية أخلاقية بطلها فتى تعارضت فى نفسه عاطفتان قويتان : حب الأسرة وحب الوطن فضحى الاولى فداء للثانية ثم ضحى حياته فداء لشرف الأسرة ، ولقد تجلت فى هذه المأساة عبقرية الشاعر ومواهبه الكبيرة فالاسلوب سهل ممتنع والافكار متسلسلة متماسكة والوقائع جلية واضحة وأخلاق أشخاص الرواية تفسرها أقوالهم وحركاتهم فلا غموض فيها ولا ابهام

ولقد ذهب النقاد فى تقدير هذا المأساة مذاهب شتى حتى قال بعضهم إنها خير ما أخرج للناس من عهد « راسين » إلى يوم ظهورها

قال الاستاذ إميل فاجيه العضو بالمجمع العلمى الفرنساوى عن هذه الرواية فى الجزء الثالث من كتابه « آراء فى التمثيل » ما معناه :

إذا نظرنا الى ما فى الفصول الثلاثة الاولى من القوة والمتانة والوضوح مع البيان والبلاغة وحسن التصوير أمكننا أن نحكم بأن هذه الرواية ستمثل إلى ما شاء الله بدون أن يملها الجمهور أو يشعر بسأم من سماعها وان فرانسوا كوبيه بكتابته للفصل الثالث منها على الاخص قد ضمن لذكراه الخلود فى ذاكرة الاجيال المقبلة ،

وهو الفصل المعنون فى التعريب بعنوان الجريمة

وقال الاستاذ جول لومتر العضو بالمجمع العلمى الفرنسوى فى الجزء التاسع من كتابه « خواطر فى التمثيل » بعد أن أطنب فى وصف شاعرية كوبيه وفى تقدير مواهبه : ان رواية « فى سبيل التاج » لهي من صنع فنى قدير وشاعر عظيم ورجل ذى ضمير حى وقلب كبير واذا كان فيها بعض النقص فهذا النقص لم يخل منه كورنى ولا فيكتور هوجو ولا غيرهما من كبار الفنيين

وقال فى موضع آخر من نفس الكتاب : ان المشاهد لتمثيل رواية « فى سبيل التاج » ليشعر منذ الهنيهة الاولى براحة واطمئنان ثم لا يلبث حتى يتأكد أنه سيشاهد عملا متقناً وفناً نظيفاً ولقد يكون أحسن مافى هذه القطعة تنسيق الافكار وتحليل العواطف وترتيب الحوادث وتصوير النفوس والاشخاص :

هذا رأى كبيرين من زعماء الحركة الادبية فى فرنسا نورده هنا ليعلم القراء منزلة هذه الرواية من نفوس الادباء فى الغرب ومبلغ تقديرهم لمؤلفها

ولقد تناول السيد مصطفى لطفى المنفلوطى هذه المأساة ونقل موضوعها الى اللغة العربية فى قالب روائى جميل بعد أن أضاف اليها أشياء وحذف منها أخرى وأخرجها لقرائه قصة

يستهوى أسلوبها القلوب وتسترعى وقائعها الالباب بقلم عذب وعبارة رقيقة وديباجة بديعة لانطيل الكلام فى وصفها لان قراء العربية جميعاً يعرفونها لهذا الكاتب العظيم ويعترفون له بها ، ولم يفته أن ينقل الى العربية قطعاً كاملة من الرواية يستطيع القارىء أن يتبين منها قوة المؤلف ، ومع أن الرواية ملخصة تلخيصاً فقد استطاع الكاتب بمهارة فائقة أن يصور الروح الاصلية للمؤلف تصويراً مؤثراً وأن يملك من نفوس قراء العربية ماملكه فرانسوا كوبيه من نفوس قراء الفرنسية

ولا يفوتنا هنا أن نقول ان الكاتب قد اشتغل بتلخيص هذه الرواية فى إبّان الحركة الوطنية الأخيرة ، ولقد أوحت اليه الحوادث السياسية التى لاتزال ماثلة فى الأذهان صفحات تفيض وطنية وغيرة حتى لكأنه قد أفضى الى أمته فى هذا الكتاب بكثير مما لم يستطع كتابته فى الصحف السياسية ، والحق أقول إننا كثيراً ما كنا نعتب عليه فى سكوته عن الاشتراك بقلمه مع العاملين فى هذه الحركة حتى قرأنا له هذه الرواية فاذا روحه الوطنية الشريفة تسيل فوق صفحاتها سيلا واذا الرواية رواية الحركة الحاضرة بجميع ظروفها ومتعلقاتها

وبالجملة فرواية « فى سبيل التاج » كتاب الوطنية الخالدة

فى ثوب قصة خيالية تملك لب القارىء بجمالها وتتولى تهذيب نفسه بآدابها وفضائلها ، وما أحوجنا أن تجرى الاقلام الادبية فى هذا العصر بمثل ما جرى به قلم السيد المنفلوطى فى هذه المأساة المؤثرة ليتلقى النشء الحديث دروس وطنيته من طريق العواطف والوجدان ، وقلما تصل الوطنية إلى اعماق القلوب وتتغلغل فى شغافها الا من هذا الطريق ؟

أول يونيه سنة ١٩٢٠ حسن الشريف

مقدمة

لا يزال التاريخ يحفظ فى صفحاته حتى اليوم تلك الوقائع الحربية الهائلة التى وقعت فى القرن الرابع عشر بين الدولة العثمانية والشعوب البلقانية أيام أغارت الاولى على الثانية تريد افتتاحها والاستيلاء عليها فدافعت الثانية عن نفسها دفاعاً مجيداً استمر زمناً طويلا حتى غلبت على أمرها فسقطت فى يد القوة القاهرة ودخل الترك أرض البلقان وحولوا كنائسها إلى مساجد وفرضوا على أهلها الاتاوات الثقيلة وعزلوا ملكها الذى كان يحاربهم ويناوئهم وملّكوا عليها ملكاً من أهلها اسمه « ميلوش » فلبثت فى حكم الاتراك عهداً طويلا عانت فيه من ضروب الذل والهوان ما يعانيه كل شعب مغلوب على أمره ، حتى قيَّض الله لها رجلاً من رجال الدين المخلصين اسمه الاسقف « أتين » عز عليه ضياع بلاده وسقوطها فى يد أعدائها وان تتحول فيها الكنائس الى مساجد وتجأر فى أرجائها أصوات المؤذنين بدلا من أصوات

النواقيس وأن لايجد المسيحيون فى عقر ديارهم مكانا يؤدون فيه فروض صلواتهم غير الصحارى والفلوات فأخذ يتنقل فى أرجاء البلاد ويمشى بين شعوبها وقبائلها يدعو باسم الدين مرة والوطنية أخرى ويستنهض همم الرجال للدفاع عن وطنهم وتحرير بلادهم من يد ذلك القاهر المغتصب حتى جمع كلمة الامة كلها من حوله على اختلاف عناصرها ومذاهبها : وكذلك تتفق كلمة الامة أمام الخطر الداهم والقضاء الشامل

ثم أشار على ملكه أن يخلع طاعة الترك ويطرد رعاياهم من بلاده ويمتنع عن دفع الجزية والاتاوة وينادى بحرية البلقان واستقلاله فجبن الملك عن ذلك فى أول الامر ثم أسلس له وأذعن لرأيه ففعل ما أشار به عليه ، فأحقد ذلك الترك وآسفهم واستثار حقدهم وضغينتهم فوجهوا إلى البلاد البلقانية جيشاً عظيما وافر العُدة والعدد بقيادة أحد أبطالهم العظام « أُرْطُغْرُل » باشا فثار البلقانيون جميعاً رجالا ونساء للدفاع عن أنفسهم والذود عن وطنهم واختاروا لقيادة جيشهم القائد البلغارى العظيم الأمير « ميشيل برانكوميز » فظل يحارب الاتراك عدة أعوام يُدال له عليهم فيها ويدال لهم عليه ولكنهم لايستطيعون اجتياز حدود

بلاده واقتحام جبالها حتى عمَّ القائد التركى بأمره ورأى أن لا حيلة له فيه الا من طريق الدسيسة والكيد وكذلك فعل

﴿ الجاسوس ﴾

اجتمع جنود الفرقة البلقانية الاولى ذات ليلة فى معسكرهم يشربون ويطربون ويرقصون على نغم قيثار الموسيقار البوهيمى المسكين « بانكو » الذى كان يفد الى معسكرهم كل ليلة يغنيهم قطعاً حماسية مؤثرة يذكرهم فيها بمجد وطنهم وتاريخه العظيم فيرقصون على غنائه ويطربون ويحسنون اليه بما فضل من زادهم وشرابهم ، ثم جلسوا بعد فراغهم يتحدثون فى شأن ذلك الحادث العظيم الذى حدث فى بلادهم منذ أيام وهو موت الملك « ميلوش » وعزم الجمعية الوطنية على الاجتماع للنظر فيمن يخلفه على العرش من بعده فانقسموا فى رأيهم قسمين ، فريق يرى اختيار الاسقف « أتين » وفريق يرى اختيار القائد « برانكومير » فقال الجندى الرومانى « أورش » وهو من أشياع الاسقف وأنصاره : نعم إن النصر قد تم لنا على يد قائدنا العظيم ميشيل برانكومير ولكن من الذى مهد له النصر وأعد له عدته قبل أن يُعقد له اللواء على الجيش ؟ أليس الاسقف أتين ؟

من الذى ينكر أن ذلك الرجل التقى الصالح هو الذى طاف البلاد من أقصاها الى أقصاها عشرة أعوام كاملة يستنهض الهمم ويستثير حفائظ النفوس ويستحيي ميت العزائم ويهيج عاطفة الثأر والانتقام فى نفوس الرجال والنساء والفتيان والفتيات ويُلقى على تلاميذ المدارس فى مدارسهم أناشيد الحرية والوطنية فيستظهرونها مع دروسهم ويتغنون بها فى مسارحهم وملاعبهم ومغداهم ومراحهم ؟

من الذى ينكر أنه هو الذى علم الشعب البلقانى دروس الوطنية الشريفة العالية وغرس فى قلوبهم ان الحياة الذليلة خير منها الموت الزؤام ، وأن الحرية حياة الامم وروحها ، والرق موتها وفناؤها ، وان الأمة التى ترضى بضياع حريتها واستقلالها وتقبل أن تضع يدها فى يد غاصبها إنما هى أحط الأمم وأدناها وأحقها بالزوال والفناء ؟

ولم يزل يفيض على نفوسهم من نفسه تلك الروحَ الوطنية العالية ويملى عليهم أمثال هذه الآيات الذهبية الشريفة حتى صفت ضمائرهم من أدران الذل والمهانة وأدركوا من معنى الحياة مالم يكن يدركه آباؤهم من قبل ، فأصبحوا كما تراهم اليوم حماة الوطن

وذادته يبذلون فى سبيله من ذات أيديهم وذات نفوسهم مالا يبذل مثله إلا الأمم الراقية الشريفة فى سبيل الذود عن مجدها والدفاع عن حريتها واستقلالها ويتقدمون الى الموت زرافات ووحداناً فرحين متهللين كأنهم ذاهبون الى مراقص « فيدين » وملاعبها ، لأنهم يعلمون أن قطرات الدماء التى يبذلونها فى سبيل حريتهم واستقلالهم إنما هى المداد الأحمر الذى تُسجل لهم به فى صفحات تاريخهم آيات المجد والفخار ، وأن الأشلاء التى ينثرونها فى تربة وطنهم ثم يسقونها من دمائهم انما هى البذور الطيبة التى تُنبت لبلادهم المستقبل الحر الشريف

من منا يجهل أنه هو الذى استطاع وحده من بين أبناء البلقان جميعاً أن يقف أمام ملكه وقفة الاسد الهصور ويصيح فى وجهه قائلا له : حتى متى أيها الملك الضعيف المهين تبيع وطنك وأبناءه لأعدائك وأعدائه بيع السلع المعروضة فى حوانيت التجار بأبخس الاثمان وأدناها ؟ والى م تضع هذه السلاسل والاغلال فى أعناق أبناء أمتك لتقودهم بها الى حيث يمرغون جباههم الشريفة تحت مواطىء أقدام ذلك العدو المغتصب صاغرين ضارعين ثم تزعم بعد ذلك أنك ملك عظيم جالس على عرش شريف ولو حققت أمرك لعلمت أنك نخاس دنىء يبيع الرقيق

فى سوق النخاسة ، بل أدنى من نخاس ، لأن النخاس لا يتجر فى أبناء أمته ولا فى أفراد أسرته ، فاهتز الملك لكلمته هذه اهتزاز القصبة الجوفاء بين مهاب الرياح وطأطأ لها رأسه إجلالاً وإعظاماً ولم يلبث أن عزم عزمته الشريفة التى ترونها اليومَ والتى أنقذت الوطن من العار ، ورفعته الى ذروة المجد والفخار

وهنا ضج القوم جميعاً ضجة السرور والاستحسان وصاحوا أحسنت يا أورش ، أحسنت إحساناً عظيماً ، الاّ نفراً قليلا من أشياع القائد وصنائعه فانهم امتعضوا لهذه الكلمة وغصوا بها ، وقام أحدهم واسمه « لازار » وكان الحارس الخاص لقصر القائد وأمينه وموضع ثقته وثقة زوجته الأميرة « بازيليد » وطلب الاذن فى الكلام فأذنوا له فقال : إنى لا أريد أن أعترض على صديق « أورش » فى كلمته التى قالها فى فضل أسقفنا العظيم وأثره الجليل فى خدمة الدين والوطن ، ولكنّ الذى أراه واستصوبه أن لرجال الدين شؤوناً خاصة بهم لا يجمل بكرامتهم أن يتعدوها الى غيرها من أعمال الحياة ، وإنى أضن بأسقفنا العظيم أن تشغله مشاغل الملك وملاهيه عن شؤون الدين التى نصب لها نفسه طول حياته ، والرأى الذى أراه أن يعهد بالملك الى القائد « ميشيل برانكوميز » ليقود الأمة جميعها بتلك السياسة الحكيمة الرشيدة التى قاد بها

الجيش ورفعه الى مناط السماك الأعلى ، فاعترضه جندى كان جالساً على مقربة منه وقال له ولم لا تضن بالقائد ميشيل أن تشغله مشاغل الملك وملاهيه عما هو بسبيله من قيادة الجيش وتدبير شؤونه ؟ فأجاب إن قيادة الجيش وزعامة الملك أمران متشابهان لأنهما يتعلقان بشؤون الحياة وأعمالها ، أما الشؤون الدينية فلا علاقة لها بالشؤون الدنيوية بحال من الاحوال ، فدعوا الكاهن مستريحاً فى معبده مستغرقاً فى صلواته وعباداته واختاروا لملككم رجل الأمة وبطلها وحامى ذمارها وحماها الامير برانكومير ، فعلت أصوات الصاخبين والصائحين والمستحسنين والمستهجنين وذهب كل في صيحته المذهب الذى يراه ويتشيع له

وانهم لكذلك إذا بصوت صارخ فى وسط هذه الضوضاء يقول : استمعوا منى أيها القوم كلمة واحدة هى فصل الخطاب فى قضيتكم هذه ولا أطلب اليكم أن تستمعوا منى سواها ، فالتفت الجمع فاذا الضابط « ألبير » وهو جندى شيخ عرف القائد برانكومير صغيراً وخدمه كبيراً وعاش معه فى منزله فى عهد زوجته الأولى كأنه أحد أفراد أسرته ولم يفارقه الا منذ عامين اثنين أى بعد وفاة زوجته بأيام قلائل ، فانصتوا اليه فاذا هو يقول « أنتم تعلمون جميعاً صلتى بالقائد برانكومير ومكانتى عنده وانى أعرف من

شؤونه الخاصة والعامة ما لا يعرفه أحد غيرى ، ولقد عرفت فيما عرفت من خلائقه وسجاياه بعد تجربة عشرين عاماً قضيتها فى خدمته انه أبعد الناس جميعاً عن مطامع الحياة ومظاهرها وأرغبهم عن سفاسف الأمور ودناياها وانه جندى صميم معتز بجنديته وشظفها وخشونة العيش فيها لا يؤثر عليها أى مظهر من مظاهر الحياة مهما علا شأنه وغلت قيمته ، فمن ظن منكم أنه يرضيه ويجامله بترشيحه لمنصب الملك فقد أخطأ فى ظنه خطأً عظيماً ، وان كان للأسقف « أتين » مزاحم على الملك بين أشراف البلقان وسادته فهو غير القائد « برانكومير » ، فهدأت الأصوات وسكنت الضوضاء عند سماع هذه الكلمة الهادئة الرزينة التى ينطق بها جندى شريف صادق وكادت تكون فصل الخطاب فى القضية لولا ان « أورش » وهو ذلك الجندى المتشيع للأسقف والداعى له قد نهض من مكانه مرة أخرى ونظر الى الجندى ألبير مبتسما ابتسامة الهزء والسخرية وقال له : نعم يا سيدى إنك صادق فيما تقول لم تزد حرفاً على ما تعرف ولم تنقص ، ولكن ائذن لى أن أقول لك إنك انما تحدّث فى كلامك عن الماضى القديم الذى حضرته وشاهدته ، أما الحاضر فلا تعرف منه شيئاً ، فان أذنت لى حدثتك عنه وقلت لك إن الأمير برانكومير اليوم غيره بالأمس ، وان

تلك النفس العالية المترفّعة التى كنت تعرف بالأمس مكانها من بين جنبيه قد استحالت اليوم الى نفس توّاقة متطلّعة تصبو الى المعالى وتفتتن بالعروش وأنه هو الذى يدعو بنفسه الى نفسه ويرسل الدعاة فى كل مكان لتأييده ومساعدته على نيل الملك ، فاستطير « ألبير » غضباً وقال أتريد أن تقول إن أخلاق قائدنا قد تغيرت وانه قد أصبح رجلاً صغير النفس متبذّلاً ، قال لا ، ما الى هذا ذهبت ، ولكنى أريد أن أقول : إنه قد أصبح منقاداً فى شؤون حياته لرأى غيره لا لرأى نفسه ، وربما لو ترك وشأنه لكانت له فى حياته خطة غير هذه الخطة التى ينتهجها اليوم ، فانتفض القوم واضطربوا ونظر بعضهم فى وجوه بعض ومشت الهمسات بين الأفواه والآذان وسمع الخطيب اسم « قسطنطين » يتردد مراراً فى أفواه الهامسين فصاح فى القوم : أنتم مخطئون جميعاً فيما تذهبون اليه ، فان ابن قائدنا وزهرة شبيبتنا وضابط فرقتنا أعلى همة مما تظنون ، فصرخ لازار : قل من هو الشخص الذى تريد ، فجلس « أورش » ولم يقل شيئاً ، الا أنه همس في أذن جندى كان بجانبه « الزوجة الجديدة » ، فسرت هذه الكلمة بين الجموع سريان الكهرباء فى أسلاكها حتى بلغت مسمع الموسيقار « بانكو » فبرقت لها عيناه بريق الفرح والسرور ، لانه لم يكن

موسيقاراً بوهيمياً كما زعم ، ولم يكن اسمه « بانكو » كما يسمونه بل هو الضابط المشهور ابراهيم بك أحد أركان حرب القائد التركى العظيم أُرطُغرُل باشا ، وقد وجد فى هذه الكلمة التى سمعها ما كان يريد أن يكون وعثر بالتُّلمة التى ينحدر منها الى أغراضه وما آر به

وما آوى القوم الى مضاجعهم وأخذ النوم بمعاقد أجفانهم حتى دبَّ ذلك الجاسوس المتنكر على يديه حتى بلغ مضجع الجندى « لازار » حارس قصر القائد وموضع ثقته وأكبر أشياع زوجته وأنصارها فاضطجع بجانبه وظل يهمس فى أذنه ساعة طويلة كان يتردد فيها اسم الأميرة « بازيليد » زوجة القائد الجديد حتى تمّ لهما الاتفاق على ما يريدان ، ثمّ أسلما عيونهما الى الكرى فناما

﴿ قسطنطين ﴾

توفيت زوجة الأمير برانكومير منذ عامين وكانت امرأة من النساء الصالحات الفاتنات ذوات النفوس العالية والهمم الكبرى ، فورث ابنها قسطنطين عنها هذه الاخلاق الكريمة كما ورث عن أبيه صفات الشجاعة والعزيمة والصبر واحتمال المكاره فى سبيل خدمة الوطن والأمة فكان خير ابن لخير أب وأم ، وكان يد أبيه اليمنى ودرعه الواقية الأمينة فى جميع وقائعه ومشاهده حتى ذاع صيته فى جميع أنحاء المملكة وأحبه الشعب والجند حبًّا كاد

يرفعه الى ما فوق منزلة أبيهِ لولا حرمة الأبوة وجلالُ الشيخوخة ومكانُ التاريخ ، فلما ماتت أمه تزوّج أبوه من بعدها فتاة يونانية اسمها « بازيليد » يقال إنها من سلالة قياصرة بيزنطية « القسطنطينية » وهى فتاة جميلة ساحرة تستهوى القوب وتختلب الألباب ذات نظرات غريبة لامعة يقضى المتفرس فيها حين يراها أنها نظرات مريبة ألفت الاختلابَ والافتتانَ من عهد بعيد ، فنزلت من قلب القائد الشيخ منزلة لم ينزلها منه أحد من قبلها ولا من بعدها حتى زوجته الصالحة وولده النجيب ، فاصبح مستهاماً بها مستسلماً اليها ، لا يصدع إلاّ بأمرها ، ولا يصدر إلاّ عن رأيها ، ولا يرى حلو العيش وجماله إلا بجانبها ، ولا يستروح رائحة السعادة والهناء إلا اذا هبت عليه من ناحيتها ، وكانت امرأة طموحا متطلعة لا يعنيها من شؤون حياتها إلا مظاهر السؤدد والعظمة ولا يغلب على مشاعرها وعواطفها إلا ذكرى تاريخ آبائها وأجدادها ومصارع قومها فى « بيزنطية » بيد الاتراك الفاتحين ، وكانت لا تزال تتحدث فى مجالسها العامة والخاصة بنبوءة قديمة تنبأ لها بعض المتنبئين ، ومجملها أن كاهناً عرافاً دخل منزل أبيها وهى طفلة لَعوبٌ لا تزال تحوم حول مهدها فنظر اليها طويلا ثم قال لأمها « إن ابنتك هذه ستكون ملكة

عظيمة الشأن في مستقبل أيامها» وربما كان اهتمامها بهذه النبوءة واحتفالها بها وتصديقها إياها هو السبب فى قبولها الزواج من شيخ هرم مدْبر قلما يُعنى بمثله مثلُها على أمل أن تحقق لها الأيام على يديه آمالها وأمانيها

فظلت تَغرس فى نفسه هذه الأُمنيّة الجميلة المحبوبة مدة من الزمان وتسقيها بماء حسنها وجمالها حتى ملأت بها فضاء قلبه وشغلته بها عن كل شاغل سواها

ولم يزل هذا شأنها معه حتى مات الملك «ميلوش» وجاءت الساعة التى تنتظرها ، فهتفت به : ها قد حانت الفرصة التى كنا نرقبها ، وها قد بدأت تتحقق نبوءة ذلك العراف الخبير التى تنبأ لى بها ، وما هو بالكاذب ولا المتخرّص ، ثمّ زجّتْ بهِ فى طريق مزاحمة الأسقف « أتين » على الملك فانقاد لها ومشى فى الطريق التى رسمتها له وأخذ يدعو الناس لنفسه ويستكثر من سواد أشياعه وأنصاره ويداخل أعضاء الجمعية الوطنية ويداهنهم ويتوسل اليهم أن يساعدوه على نيل أمنيته التى يرجوها مُدِلاً بمكانتهِ من خدمة الأمة والوطن وأياديه فى الذود عنهما وبما بذل من صحته وشبابه فى مقاتلة الأعداء ومدافعتهم تلك السنين الطوال حتى اشتعل رأسه شيباً ولمست قدماه رأس المنحدَر المؤدى الى القبر

هذا ما كان يشغل القائدَ وزوجتَه فى ذلك التاريخ ، أما ابنهُ قسطنطين فكان بمعزل عن هذا كله ، فان وفاة أمه التى كان يحبها حباً شديداً تركت فى نفسه أثراً من الحزن لا يبلى ، وملأت فضاء حياته هماً ونكداً ، وكان يجد بعض العزاء عن ذلك الهمّ الذى نزل بهِ فى حنان أبيه عليه وعنايته به حتى تزوّج من تلك المرأة اليونانية وأسلم اليها نفسه وقلبه ففقد بفقد عطف أبيه عليه وحنان أمه كلّ أمل له فى الحياة ، وأصبح يشعر فى نفسهِ بذِلة اليُتم التى يشعر بها أولئك المساكين المنقطعون الذين لا يجدون بين أيديهم قلوباً راحمة ولا أفئدة عاطفة

فكان يخاطر بنفسهِ فى المعارك التى يحضرها مخاطرةَ اليائس المستقتل راجياً أن يريحهُ الموت من هموم نفسه وآلامها ، فزج بنفسهِ ذاتَ يوم فى معركة كبرى استبسل فيها استبسالا عظيما واستقتل معه جنده يطلبون الموت حيث يطلبهُ فلم يبلغ أمنيته التى يتمناها ، ولكنهُ انتصر فى تلك المعركة انتصاراً باهراً وأنقذ من يد الترك شِعب « تراجان » وكان الملجأ العظيم لهم والمركز الاكبر لحركاتهم وأعمالهم

وانه ليتأثر الجيشَ المنهزم ويشتد فى أعقابه إذ لمح على البعد فارساً تركياً قابضاً بيده على شعر فتاة مسكينة يريد اقتسارها

واكراهها على الركوب معه وهى تمتنع وتتأبى وتحاول الافلات من يده فيضربها بسوطه ضرباً مؤلما وجيعاً ، فأزعجه هذا المنظر وآلمهُ فركض جوادَه حتى أدرك ذلك الفارس فضربه على هامته بسيفه ضربة قضت عليه ، فركعت الفتاة بين يديه ضارعة تسأله أن ينقذها من شقائها ويقودها معه الى حيث يشاء ، فرثى لحالها وأحزنه منظرها دون أن يعلم من أمرها شيئاً ، فأردفها خلفه وركض بها حتى بلغ موضع الخيام فتركها بين الاسرى وعاد من تلك الموقعة ظافراً منصوراً يهنئه الشعب ويهتف له فى كل مكان يمر به حتى وصل الى القلعة الكبرى فدخل على أبيه وألقى بين يديه الاعلام التى غنمها فى المعركة فأمر برانكومير بقتل الاسرى وكان ذلك شأنه فيهم كلما قدموا اليه حتى جاء دور الفتاة فجثت بين يديه ومدت اليهِ يدها مستغيثة تطلب العفو وتقول له إنها فتاة نوَرية مسكينة لاشأن لها فى الحرب ولا علاقة لها بأهله وإن أمها باعتها منذ عامين من جندى تركى أساء عشرتها وعذبها عذابا أليماً حتى قيض الله لها هذا الفتى الكريم فاستنقذها من يده ، وأشارت الى قسطنطين

فركع قسطنطين بجانبها وسأل أباه العفو عنها وقال له اننى قد أنقذت حياتها بالأمس فأنقذ أنت حياتها اليوم واجعلها حصتى

الوحيدة من الغنيمة وأعدك انى لاأطلب غنيمة سواها ، فأحفظ ذلك قلبَ الاميرة « بازيليد » زوج أبيهِ وكانت حاضرة تسمع حديثه فنظرت اليهِ نظرة الازدراء والاحتقار وكان هـذا شأنها معهُ كلما التقت به وأنشأت تنعى عليـهِ اهتمامه بشأن فتاة نوَرية راقصـة طريدة غابات وفلوات ، وربيبة حانات ومعسكرات ، وقالت له ، لقـد كان جديراً بك وأنت ذلك الجنـدى الشريف سليل ذلك القائد العظيم والأمير الجليل أن تُلقى بمثلها الى حارس من حراس بابك أو جنـدى من جنودك يتلهى بها كما يتلهى الكلب بالعظمة المطروحة تحت أرجله بدلاً من أن تصل حياتك الشريفة الطاهرة بحياتها الدنيئة الساقطة

فثارت ثورة الغضب فى نفسه وأضغنه عليها هذا الرياء الكاذب والشرف المتكلف وكان يعلم من شؤون نفسها وخبايا قلبها مالا تظن انهُ يعرف شيئاً منهُ فنظر اليها نظرة شزراء ملتهبة وقال لها وهو يعلم ان ماسيقوله سيغضبها ويؤلمها ويملأ صدرها غُصة وحنقاً : ان الله لم يخلق الضعفاء والمساكين ليكونوا تراباً لنا تدوسهُ أقدامنا وتطأه نعالنا كلما وجدنا الى ذلك سبيلاً ، ولم يمنحنا القوة والعزة لنتخذ منهما أسواط عذاب نمزق بها أجسامهم ، ونستنزف بها دماءهم ، وكل ذنوبهم عندنا انهم أذلاء مستضعفون لايملكون

من القوة والعزة مثلما تملك ، ولا يذودون عن أنفسهم بمثل ماتذود

وأحسبُ أنهم لو كانوا أقوياء أو أعزاء مثلنا أو أعزّ وأقوى منا لخفناهم واتقينا جانبهم ونظرنا اليهم بعين غير العين التى ننظر بها اليهم اليوم ، لأن القوى الذى يتنمر على الضعفاء لابدّ أن يكون جباناً ذليلاً أمام الأقوياء

اننا الآن فى حرب مع عدو قاهر جبار ننقم منه جورَه وظلمه واستضعافه ايانا واستطالته علينا بقوته وكثرته ، فجدير بنا أن لانفعل ماننقمهُ منه ونأخذه بهِ ، عسى أن يرحمنا الله وينظر الينا بعين عدله واحسانه وينتصفَ لضعفنا من قوتهِ ، وقلتنا من كثرته

إنا لانحمل هذه السيوف على عواتقنا لنقتل بها النساء والاطفال والضعفاء والعزّل الذين لاسلاح لهم ولا قوة فى أيديهم ، بل لنقارع بها الأبطال والأكفاء فى ميادين الحروب ومواقف النزال

إنى لاأعرف شرفاً غير شرف النفس ، ولا نسباً غير نسب الفضيلة ، وإن هذه البائسة المسكينة التى تحتقرونها وتزدرونها لم تصنع ذنبها بيدها ، ولا سعت إليهِ بقدمها . بل هكذا قدر لها أن اتنبت فى هذا المنبت القذر الوبىء فوبئت وقَذَرت وليس فى ستطاعتها أن تعود الى العَدم مرة أخرى لتخلق نفسها خلقاً

جديداً فى جو غير هذا الجو وتربة غير هذه التربة ، فما هو ذنبها وماهى جريمتها ، وأى حيلة لها فى هذا المصير الذى ساقها القدر اليه ؟

انما الاثم على الذين يقترفون الذنوب وهم يعلمون مكانها من الرذيلة ومكان أنفسهم من اقترافها ويحولون زمام حياتهم بأيديهم من طريق الخير الى طريق الشر إيثاراً لها وافتتاناً بها ، أولئك هم الآثمون المذنبون الذين يجدر بنا أن نقسو عليهم ونشتد فى مؤاخذتهم ، أما الضعفاء والمساكين الذين لاحول لهم فى شأن أنفسهم ولا حيلة فهم برحمتنا وعطفنا أحق منهم بعتبنا ولومنا ، فان وجدنا السبيل إلى معاونتهم ومساعدتهم واستنقاذهم من وهدة الشقاء التى هووا فيها فذاك ، أولا فلندعهم وشأنهم تذهب بهم المقادير حيث شاءت من مذاهبها ، ولانزدهم بكبريائنا واستطالتنا بؤساً على بؤسهم ، وشقاء على شقائهم

إننا ما أُصبنا بما أُصبنابه من هذه النكبة الشعواء والداهية الدهياء التى نزلت بنا منذ عشرة أعوام ما تفارقنا ولا تهدأ عنا الا من ناحية كبريائنا وخيلائنا واعتدادنا بأنفسنا فى جميع شؤوننا وأعمالنا ، واحتقار غنينا لفقيرنا ، وقوينا لضعيفنا ، وسيدنا لمسودنا ، فسلط الله علينا ذلك العدو القاهر الذى لا يعتمد فى جميع شؤونه ومواقفه إلا على قوته وأيده ، لاننا لم نعتمد فى يوم من أيام حياتنا

فى جميع صلاتنا وعلائقنا إلا على قوتنا وأيدنا ، والجراء من جنس العمل ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

فاصفر وجه بازيليد واربدت شفتاها وكانما خيل اليها انه يلمزها ويزنيها ويشير فى حديثه الى ماضيها القديم وحوادث صباها السالفة فصمتت ولم تقل شيئاً إلا انها انتحت ناحية وأخذت تبكى وتنتحب ، والدموع هى السلاح الوحيد الذى تعتمد عليه المرأة فى جميع شؤونها وعلائقها ، فعظم الامر على برانكومير وأكبر أن يخاطب ولدُه زوجتَه المحبوبة هذا الخطاب الجافى الغليظ فأنحى عليه باللائمة الشديدة وقال له : انك لم تسئ الى نفسك فى تنزّلك الى حماية هذه النورية الساقطة واهتمامك بشأنها بقدر ما أسأت الى أبيك فى مجابهة زوجته ومغايظتها وسوء الرد عليها بهذه اللهجة الشديدة القاسية ، ولولا هذه الرايات الحمر التى ألقيتها اليوم تحت قدمىّ بأهلتها البيضاء لما اغتفرتُ لك هذه الجريمة التى اجترمتها ، فاذهب لشأنك ولا تعد الى مثلها

وكذلك تم لقسطنطين ما كان يريده من إنقاذ تلك الفتاة المسكينة من يد الموت بعد ما أنقذها من يد الشقاء ، فذهب بها الى الجناح الذى يسكنه من القلعة وجلس اليها يحادثها فى شأنها وشأن ماضيها ويسائلها عن دينها ومذهبها ووطنها وقومها فلم ير

بين يديه إلا فتاة ساذجة جاهلة لا تعرف لها وطناً ولا بيئة ولا تدين بدين من الأديان ولا مذهب من المذاهب ولا تفهم من شؤون حياتها إلا أنها فرد مبهم من أفراد هذا المجتمع المائج المضطرب، تمتد بامتداده وتنحسر بانحساره، لا تعرف الآمال ولا تفكر فى المستقبل، ولا تحفل بالماضى، ولا يتسع عقلها لأكثر من الساعة التى تعيش فيها، ولا تتألم إلا كما يتألم الأطفال، ولا تفرح إلا كما يفرح المجانين، قد صفت نفسها من كل شائبة من شوائب النفوس البشرية، فلا تحقد ولا تغضب ولا تكره ولا تحسد ولا تطمع ولا تتطلع ولا تشغل ذهنها بترتيب الصور والأفكار واستنتاج النتائج من المقدمات، فأصبح ينظر اليها نظر الأب الرحيم الى طفله اللاعب بين يديه، وأصبحت تجلس تحت قدميه جلسة الكلب المخلص تحت قدمى سيده، لا تحدثه حتى يحدثها، ولا ترفع نظرها إليه حتى يناديها، وكان يقول فى نفسه كلما نظر اليها والى سذاجتها وطهارتها وبلاهة عقلها وغفلته: أهكذا قُضى على الانسان فى هذه الحياة ألاّ تخلص نفسهُ من شوائب الرذيلة والشر حتى يُسلب عقلَه وادراكه قبل ذلك، وألاّ يُمنح مقداراً من الصدق والشرف حتى يحرم فى مقابله مقداراً من الفطنة والذكاء، فليت شعرى هل عجزت الطبيعة عن أن

تجمع للمرء بين هاتين المزيتين ، مزية العقل الذى يعيش به ، والخُلق الذى يتحلى بحليته ، أو أنّ لله فى ذلك حكمةً لا نعلمها ولا ندرك كنهها ؟..

وكأنما كان يشعر فى نفسه باقتداره على أن يجمع لتلك الفتاة المسكينة بين هاتين الفضيلتين ، وأن يصوغ من نفسها ذلك المثال الغريب الذى عجزت يد الطبيعة عن صياغته ، فبدأ يهتم بشأنها اهتماماً عظيماً ، ويتبسَّط معها فى الحديث تبسُّطَ النظير مع نظيره ذاهباً معها فى كل واد من أوديته مَعنيًا كل العناية بتثقيفها وتعليمها وإنارة ما أظلم من بصيرتها ، ولكن بأسلوب غير الاسلوب الذى كان يعلمه به معلمه فى المدرسة ، فأرشدها الى وجود الله لا من طريق البراهين الجدلية والقضايا الكلامية ، بل من طريق الآثار والمصنوعات الناطقة بجمالها ولطف تكوينها عن قدرة صانعها وابداع خالقها ، وأرشدها الى الفضيلة من طريق الفضيلة نفسها لا من طريق الترغيب فى الثواب والتخويف من العقاب ، ليكون أدبها أدب نفس لا أدب درس ولتمتزج الفضيلة بنفسها امتزاجاً لا تزعزعه عواصف اليأس ولا عوامل الرجاء ، فكانت تعجب لحديثه ومراميه عجباً شديداً ، وتجد فيه من اللذة والغبطة ما لا تذكر انها شعرت بمثله فى حياتها فى حديث أىّ متحدث يتحدث اليها ،

وتعجب أكثر من كل شيء لتنزل مثل هذا الامير الجليل والسيد الشريف الى مجالستها ومثافنتها والنزول على حكمها فى ما يغضبها ويرضيها ، فقالت له مرة وهى تحاوره : انك تحدثنى يامولاى كأنك لاتعرف من أنا ، قال إنى أعرفك كما تعرفين نفسك وأعرف انك أختى فى الانسانية وهى الأم الرؤوم التى لايستطيع أحد من بنيها أن يَمُت اليها بأكثر مما يمت به اخوته ، وما للأخت ملجأ تلجأ اليه فى شدتها غير عطف أخيها وحنانه عليها ، قالت ولكنك تعلم أني فتاة مذنبة ساقطة ، قال كل الناس مذنبون آثمون ، وإنما تختلف صور الذنوب وأشكالها وأساليب اقترافها ، قالت : لم أر فى حياتى مذ نشأت حتى اليوم عفيفاً قط ابتسم فى وجهى ، قال ذلك لان الناس مراءون مخادعون يزعمون لانفسهم من الفضائل والمزايا ما تنكره نفوسهم عليهم ، فهم يحتقرون المذنب ويذدرونه لا لأنهم أطهار أبرياء كما يزعمون ، بل ليوهموا الناس انهم غير مذنبين ، ولو انهم تكاشفوا وتصارحوا وصدق كل منهم صاحبه الحديث عن نفسه لتتاركوا وتهادنوا ولما آخذ أحد منهم أحداً بذنب ولا جريرة

وكذلك أصبحت ميلتزا العزاء الوحيد لقسطنطين عن همومه

وآلامه ، فقد وجد بين جنبيها تلك النفس الطاهرة البريئة التى طالما نشدها قبل اليوم فاضلها ، وتطلبها فاعياه طلابها ، ووجد فى صدرها ذلك القلب المحب المخلص الذى بكاه وندبه ندباً شديداً يوم ماتت أمه ويوم تولى عنه حنان أبيه ، وكان يتحدث معها فى كل شأن من شؤون الحياة دقيقها وجليلها ويفضى اليها بكل خبيئة من خبايا نفسه إلا ذلك الهم العظيم الذى كان يعالجه فى أطواء نفسه وأعماقها ويكابد منه ما يقلق مضجعه ويصل ليله بنهاره ، وهو استحالة حال أبيه وانتقاض قلبه عليه وانقياده ذلك الانقياد الاعمى الى تلك الفتاة اليونانية الدخيلة التى لا يعنيها من شأنه سوى أن تتخذ من عاتقه سلماً تصعد عليها إلى سماء المجد ثم لاتبالى بعد ذلك أن تدفعه بقدمها بعد بلوغ غايتها فيسقط فى الهوة التى قدر له أن يهوى فيها ، إلا أن ميلتزا الذكية بفطرتها المتفانية فى حبها واخلاصها لم يكن يفوتها أن ترى بعين فطنتها وذكائها فى تلك الزاوية المظلمة من زوايا قلبه ذلك الهم الخفى المكتتن ، وكان يساعدها على فهمه واستكناهه تلك الاحاديث التي كانت تسمعها تدور من حين الى حين بين الفائد وزوجته عند ما كانا يمران بها أو يقفان على مقربة منها وهى جالسة تحت بعض الجدران أو فى ظلال بعض الاشجار لا يحفلان بها ولا

يلقيان لها بالا ، فقد سمعته مرة يقول لها « إننى أحبك يابازيليد حب المرء نفسه التى بين جنبيه ، ولقد عشت حياتى كلها قانعاً من العيش بتلك اللذة الوحشية الدموية ، لذة القتل والاسر وسفك الدماء وتقطيع الاوصال ، حتى رأيتك تتطلعين الى تاج الملك وتشتهين أن تضعيه فوق رأسك فأحببته من أجلك وأصبحت لا أقترح على الدهر أمراً سوى أن أرى تلك الجبهة اللامعة المضيئة يتلألأ فوقها ذلك التاج المرصع البديع ، فلا تيأسى منه ولا تقنطي ، واعلمي انني سآتيك به وان كان كوكباً نائياً فى آفاق السماء ، أو درّة راسبة فى أعماق البحار « وسمعتها مرة تقول له « ما أجمل وجهك يا برانكومير ، وما أبدع ضياءه ولألاءه وما أنصع هذه الشعور البيضاء التى تدور به دورة الهالة بالقمر ، وما أجمل تاج الملك يوم يوضع على رأسك فتتحد الاضواء الثلاثة جميعها ويموج بعضها فى بعض فتتراءى فى أجمل شكل وأبدع منظر ، إنك ستكون ملكا بامولاى وستكون أعظم ملوك العالم شأنا وأرفعهم مقاماً وستجتمع فوق عرشك الرفيع الامجاد الثلاثة مجد النسب ، ومجد الحروب ، ومجد الملك ، ولقد ألقى الكاهن فى نفسى كلمته التى تنبأ لي بها وما هو بالكاذب ولا المجنون ، فكن علي ثقة من صدقه وحكمته ، واعلم أنه ليس بينك وبين التاج إلا

خطوة واحدة فاخطها بهمة وعزيمة تبلغ الغاية التى تريد » وسمعتها مرة تقول له « انني لا أخاف على أملنا أحداً من الناس سوى ولدك قسطنطين ، فقد علمت أمس من بعض أصدقائه انه ينكر عليك كل الانكار هذا المسعى الذى تسعاه اليوم ، الا سمعت أنه يثبط الناس عنك ويزحزحهم من حولك ويلقى فى قلوبهم اليأس من نجاحك ، ولقد حدثنى عنه بعض الناس أن ذاكراً ذكر له مرة ولاية العهد مهنئاً اياه بها ، فغضب واحتد وتغيظ عليه تغيظاً شديداً وقال له : انى جندى ولدت فى ساحة القتال وسأموت فيها » وأن كلمة كهذه الكلمة المؤثرة يقولها أمير مطاع فى الجيش والشعب كولدك لابد أن تترك أثراً سيئاً في نفوس الناس جميعاً وتفت فى عضد أنصارك وأعوانك ، وربما كانت سبباً فى القضاء على آمالك وأمانيك ، ولا أعلم لخطته هذه سبباً سوى ذلك البغض الشديد الذى لا يزال يضمره لى فى أعماق قلبه مذ دخلت بيتكم حتى اليوم وما أذنبت اليه ذنباً ولا أسلفت عنده جريرة فهو يؤثر أن يحرم نفسه وبيته ذلك الشرف العظيم الخالد على أن يرانى جالسة على العرش بجانبك استظل بظل نعمتك وأشاركك فى التمتع بمجدك وسلطانك ، فقاطعها الامير وقال لها : لا تصدقى يا بازيليد شيئاً مما يقولون . فقسطنطين أبر

بى وأعظم حباً وإخلاصاً من أن يعترض سبيل رغبة يعلم انى أرغبها وأصبو اليها، ولا أعلم أنه يبغضك أو يضمر لك فى نفسه شيئاً من الشر الذى تذكرين، بل هو يحترمك ويجلك اجلاله اياى ويحب لك من الخير ما يحب لى ولنفسه ولا يؤثر على مرضاتنا شيئاً »

وكذلك ظلت ميلتزا تسمع أمثال هذه الاحاديث فتعلم منها ما يدور بنفسى هذين الشخصين الطامعين وتعلم أن هذا الذى يدور بنفسيهما انما هو علة ذلك الهم الذى يعالجه قسطنطين فى أعماق قلبه ويكابده، ولكن لم يخطر ببالها مرة أن تنقل اليه شيئاً مما سمعته اعظاما له واجلالا وضنا بنفسها وبأدبها أن تفاتحه فى أمر لم يشأ هو أن يفاتحها فيه

﴿ التاج ﴾

جاء اليوم المعين لاجتماع الجمعية الوطنية للنظر فى انتخاب الملك الجديد فنظرت فى المسألة نظراً خالصاً مجرداً عن الميل والهوى فرأت أن العدو لا يزال على الابواب وأنه لا يزال قوى الشكيمة صعب المراس وأن الوطن يحتاج إلى الامير برانكومير قائداً أكثر مما يحتاج اليه ملكاً وأن الاسقف « أتين » أعظم رجال المملكة

عقلا وأسماهم ادراكا وأقواهم سلطاناً على نفوس الجيش والشعب فقررت تقليده ملك البلقان وأعلنت قرارها فى جميع أنحاء المملكة فقابله الشعب بالرضا والتسليم ولم يختلف عليه إلا العدد القليل من أشياع القائد وأنصاره

ثم أقيمت حفلة التتويج بعد أيام فحضرها جميع وجوه المملكة وعيونها ورجال السياسة والجيش ماعدا القائد برانكومير ، فلم يأخذه الملك بهذه الهنة بل أعتبه وأعطاه من نفسه الرضا ، ولم يقنع فى أمره بذلك حتى أعلن عزمه على السفر الى الحدود لزيارته فى قلعته ، وما لبث أن سافر فى جمع من حاشيته وجنده ، وكانت رسله قد تقدمته لانباء القائد بمقدمه فامتعض لذلك وتمرمر وكادت تحدثه نفسه أن يسافر الى بعض الجهات حتى لا يستقبله عند قدومه لولا أن أشارت عليه بازيليد بغير هذا الرأى فأذعن لها راغماً ونزل لانتظاره أمام باب القلعة حتى حضر ، فحياه الملك حين رآه تحية الاجلال والاعظام وعانقه عناقاً طويلا وقال له : أما الملك الجالس على عرش البلقان وصاحب الامر والنهى فيه فهو أنت يابرانكومير ، أما أنا فانى خادمك الامين المخلص القائم بتنفيذ أوامرك وتجييش الجيوش لك وامدادك بما تحتاج اليه من العدة والمؤونة ، واعلم ان الامة لم تضن عليك بالعرش والتاج ولا رأت

أن أحداً أجدر بهما منك ، ولكنها ضنت بك أنت ، وأنت حصنها المنيع ودرعها الواقية وبطلها الذى لا يغنى غناءه فى موقفه أحد — أن يشغلك شاغل الملك عن شأنك الذى أنت فيه والذى نصبت له نفسك طول حياتك ، فآثرت بقاءك فى هذه القاعة تحميها وتحمى المملكة بحمايتها : فان لم تكن الملك الجالس على عرش « فيدين » فأنت الملك المتبوئ عرش الافئدة والقلوب ، واعلم انى ماقدمت اليك مقدمي هذا لاعتذر عندك من ذنب أذنبته اليك أو لأتوجع لك من كارثة نزلت بك لانى اعلم انك أجل وأرفع من أن تعتبر عبء الملك وهمه نعمة تأسف على فقدها ، بل جئت لأباركك وأمسحك وأدعو لك الله أن يمدك بروح من عنده حتى يتم لنا على يدك النصر الذى نرجوه لانفسنا فيأمن البلقان أبد الدهر أن تخفق على ربوعه بعد اليوم راية غير راية المسيح أو يرن فى أجوائه صوت غير صوت الله

ثم تقدم نحوه ووضع يده على رأسه يباركه ويصلى له وبرانكومير يتميز غيظاً وحنقاً ولكنه يتجلد ويستمسك حتى فرغ الاسقف من شأنه ، فلم ير بداً من أن يستقبل حفاوته بمثلها فمد اليه يده وهنأه بالملك واعتذر اليه عن تقصيره فى حضور حفلة التتويج فقبل عذره وقضى بقية يومه عنده هانئاً مغتبطاً لا يرى إلا انه

قد أرضاه ومحا أثر ذلك العتب من نفسه

ثم عاد بموكبه راضياً مسروراً فشيعه القائد الى ضاحية المدينة ولبث واقفاً مكانه ساعة ينظر الى ذلك الموكب الفخم العظيم ويسمع موسيقاه الشجية الجميلة حتى غاب عن بصره فانقلب الى قصرة ثائراً مهتاجاً يصيح ويجأر ويهذى هذيان المحمومين حتى بلغ غرفته الخاصة فوقف بجانب نافذة عالية مشرفة على الجماهير الغادية والرائحة فى طرقها ومذاهبها وأنشأ يحدث نفسه ويقول :

نباً لك أيها الشعب الخائن الغادر لقد جازيتنى شر الجزاء على عملى وكفرت بنعمتى التى اسديتها اليك ويدى التى اتخذتها عندك أيام كنت أسهر لتنام وأشقى لتسعد وأقضى ليالىّ الطوال سجينا فى قاعى لا أبرحها ولا انتقل منها لأدبر لك أمر الحماية التى تحميك وتصون أرضك وديارك وأنت لاه لاعب ، هانىء مغتبط يمرح عامتك فى منازههم ومسارحهم ليلهم ونهارهم ، ويقيم خاصتك حفلات الرقص والغناء فى قصورهم وأنديتهم ، فكان جزائى لدك ان ضننت على بالعرش الذى أنا عماده وملاكه وحامل قوائمه وعمده ، وآثرت به كاهنا مافونا لا شأن له فى حياته سوى أن يمسح رءوس الاطفال ويهمهم حول أسرة الموتى ، فبئس ماجررت على نفسك من الويل فى فعلتك التي فعلت ، وبئست الساعة التى

رأيت فيها هذا الرأى الفائل الخطل ، لقد فللت بيدك سيفك الذى كان يحميك ويصونك ، وأطفأت جذوة الحماسة فى صدر قائدك الذى كان يذود عنك وعن عرضك ويحمى أرضك وديارك . فابتع لك بعد اليوم قائداً يتولى حمايتك وصيانتك . أو فاطلب الى أسقفك التقى الصالح الذى توجته بيدك واخترته بنفسك لنفسك أن يستنزل لك بدعواته النصر من آفاق السماء

وإنه ليردد فى موقفه أمثال هذه الكلمات وينفث سموم الحقد والشر على العالم بأجمعه اذ دخلت عليه الأميرة باسمة متطلقة تختال فى حللها وحلاها فأخذت بيده وقالت له أرفق بنفسك يا برانكو مير واعلم أن نبوءة الكاهن لا تكذب ولا تخيب ، وأبشرك انك ستكوك بعد شهر واحد ملكا على البلقان ، ولا تسألنى كيف يكون ذلك ، فدهش لأمرها وحاول أن يسألها عن معنى كلمتها وماتأها فلم تمكنه من ذلك لانها تهافتت عليه واعتنقته ووضعت على فمه قبلة شهية أطفأت بها جذوة حدته وغضبه ، ثم أفلتت من يده وعادت أدراجها

﴿ المؤامرة ﴾

اضطجعت بازيليد فى سريرها وجلست خادمتها صوفيا تحت قدميها تروح لها بمروحتها وتحدثها حديث تلك الآمال الحسان التى لاتزال تتراءى لها فى يقظتها وتحلم بها فى منامها ، وإنهما لكذلك اذ قرع الباب قرعاً خفيفاً فعرفت صوفيا من القارع وفتحت له فاذا « بانكو » الجاسوس التركى متنكراً فى زى الموسيقار المسكين ، فدخل وحيا الأميرة تحية الاجلال والاعظام ثم أخذ مقعده الذى كان يقتعده من الغرفة فى كل ليلة وأنشأ يضرب على قيثارته قطعة رومانية جميلة من تلك القطع التى كان أعدها منذ عهد طويل ليخلب بها لب تلك المرأة ويستهويها حتى أتمها . فطربت لها طرباً شديداً . ثم دعت خادمتها فأرسلتها فى بعض الشؤون . فلما خلا بها المكان ألقى الموسيقي قيثارته جانباً وخلع عنه رداء التنكر ثم مشى الى سريرها فجلس بجانبها وقال لها : ماذا تم في المسألة يابازيليد . فقد طال مقامى فى هذا البلد وأخشى أن يرتاب بى أحد . وليس فى استطاعتى أن أبقى هنا أكثر من ثلاثة أيام ثم أنصرف لشأنى

فاعتدلت فى جلستها وقالت له : لقد فاتحت الأميرليلة أمس

فى المسألة وعرضت عليه مقترحك الذى اقترحته فأصغى الى حديثى فى مبدأ الامر ، ثم لم يلبث أن أكفر وجهه واكتأب وأبى أن يقبل منى كلمة واحدة فى هذا الشأن ، وظل يقاطعنى ويعارضنى معارضة شديدة فلم أشأ أن الح عليه مخافة أن يرتاب بى وبمقصدى ، وسأستأنف معه الحديث الليلة بعد رجوعه من المعسكر وأرجو أن ينتهى باذعانه وتسليمه ، ولا يفتك ياسيدى ان من أصعب الامور على رجل شريف عظيم مثل برانكومير أن يتحول فى ساعة واحدة عن أخلاقه وطبيعته ، وأن ينقلب فجأة من رجل وطنى مخلص يبذل دمه وحياته فى سبيل الدفاع عن وطنه والذود عنه الى خائن سافل يبيع ذلك الوطن العزيز عليه من أعدائه بعرض تافه من أعراض الحياة ، فلا بد من مهادنته ومؤاتاته وأخذه بالروية والتؤدة

قال ليس فى الامر خيانة ولا دناءة ، ولا بيع وطن ولا أمة ، فانا لا نريد أن ندخل بلادكم مستعبدين أو مسترقين ، بل أصدقاء مخلصين ، وما خطر ببالنا قط حينما فكرنا في افتتاح بلادكم والنزول بها أن نصادركم فى حريتكم الدينية والاجتماعية ، أو نسلب أموالكم وتنتهك أعراضكم ، أو نغلق أبواب كنائسكم ومعابدكم ، أو نخرس أصوات نواقيسكم وأجراسكم ، إلا لنكون

أعوانكم على ترقية شؤونكم الاجتماعية والاقتصادية والسير بكم في طريق المدنية الأدبية والسياسية ، حتى تبلغوا الذروة العليا منهما ، ولنحميكم فوق ذلك من أعدائكم المجربين الذين يطمعون في امتلاك بلادكم واغتيالها ، وندفع عنكم شرورهم ومطامعهم ، فنحن أصدقاؤكم المخلصون الاوفياء ، من حيث تظنون اننا أعداؤكم وخصومكم

فابتسمت بازيليد ابتسامة الهزء والسخرية ونظرت اليه نظرة عتب وتأنيب وقالت له : ان برانكومير ياصديقي ليس موجوداً معنا لنخدعه بأمثال هذه الاساليب الكاذبة ، أما أنا فاني لا أنخدع بها ولا أغتر ، لاني أعلم كما تعلم أنت وكما يعلم الساسة الكاذبون جميعاً أن الفاتحين من عهد آدم الى اليوم ، إلى أن تبدل الارض غير الارض والسموات لا يفتحون البلاد للبلاد بل لانفسهم ، ولا يمتلكونها لرفع شأنها واصلاح حالها والاخذ بيدها في طريق الرقي والكمال كما تقول . بل لامتصاص دمها وأكل لحمها وعرق عظمها وقتل جميع مواد الحياة فيها ، والامة ان لم تتول اصلاح شأنها بنفسها لا تصلحها أمة أخرى مهما حسنت نيتها ونبل مقصدها ، والصلاح ان لم ينبت في تربة الامة نفسها ويزهر في جوها ويأتلف مع مزاج أفرادها وطبيعتهم

لاينفعها ولا يجدى عليها ، ويكون مثله مثل الزهرة التى تنقل من مغرسها الى مغرس آخر ، فهى تزهر فيه أياما قلائل ثم لا تلبث أن تذبل وتذوى

فان وجد بين أولئك الطامعين من يذهب فى سياسته الاستعمارية مذهب الاصلاح والتشييد ، فكما يسمن صاحب الشاة شاته ليذبحها ويأكلها ، وكما يتعهد صاحب المزرعة مزرعته بالرى والتسميد ليستكثر غلتها وثمراتها

أما الحرية الدينية التى تريدون أن تمنوا بها علينا فما أهونها عليكم ما دامت لا تعطل لكم غرضاً ، ولا تقف لكم فى سبيل مطامع ، وقديماً كان الفاتحون يخدعون الشعوب الجاهلة بارضائها فى شؤون دينها ، ليسلبوها شؤون دنياها ، ويوجهون نظرها الى الشؤون الروحية الحالية ، ليقطعوا عليها طريق النظر فى الشؤون المادية الحيوية ، فكان مثلهم فى ذلك مثل اللص الذى يدس لمن يريد سرقته مادة مخدرة فى طعامه لا تكلفه الا ثمناً يسيراً ليستولي على الجم الكثير من دنانيره ودراهمه ، على أن القوة الدينية فى الامة أثر من آثار القوة السياسية ، فاذا ضعف أمر الامة فى سياستها ، ضعف أمرها مع الايام فى دينها ولا بقاء لدين من الاديان يعيش تحت سلطان دين آخر ويستظل برايته

الا كما يبقى الثلج تحت أشعة الشمس وحرارتها ، ومن ظن غير ذلك فعلى عقله العفاء

أما حمايتكم إيانا من أعدائنا فليس لنا على وجه الارض عدو سواكم ، فاحمونا من أنفسكم قبل أن تحمونا من غيركم ، وهب أن المجريين اعداؤنا كما تقولون ، فهل هم يطمعون فى شىء أكثر مما تطمعون فيه أنتم ؟ وهل يحاولون منا غير هذا الفتح الذى تحاولونه اليوم ؟ وهل من الرأى أن يهب الانسان متاعه رجلا مخافة أن يغلبه عليه رجل آخر ؟ او ان يذبح نفسه بيده فراراً من ذابح يريد أن يذبحه ؟

انكم ما جئتم هنا لتحمونا من أعدائنا بل لتحتَموا بنا من أعدائكم ، لانكم انما أردتم بامتلاك هذه البلاد واستعمارها أن تتخذوا من حصونها وقلاعها وجبالها وأسوارها ودماء أبنائها وأرواحهم وقايةً لكم تتقون بها زحفَ المجَريين عليكم وعُدوانَهم على أرضكم

هذه هى الحقيقة التى لا ريب فيها ، فان كنت تريد بما قلته أن تعلمنى ما ألفته لذلك الرجل الذى اتفقنا على خداعه وختله فانى أحفظ كثيراً من أمثال هـذه الرقى والتعاويذ ، فلا حاجة بى الى سماعها منك ، فلنعمل فى المسألة معاً متكاشفين متصارحين ، ولتعلم ان الذى أسعى لاعطائك اياه وتسليمك زمامه انما هو

الوطن بأجمعه ، أرضه وسماؤه ، وبره وبحره ، وخيراته وثمراته ، وحرية أهله وسعادتهم ، وأن الثمن الذى أنقاضاكه فى سبيل ذلك ثمن بخس ضئيل لايزيد على كرسى من الخشب مموه بالذهب يسميه الجهلاء عرشاً وهو فى البلد المغلوب على أمره المسلوب حريته واستقلاله سجن ضيق لولا خدع الحياة وأكاذيبها لما استطاع الجالس عليه أن يهدأ فيه ساعة واحدة . فأنا أبيعك هذا الوطن الثمين وآخذ منك ذلك الكرسى الحقير ، وأنا عالمة قيمة ماأعطى وقيمة ما آخذ ، فلاتحسب انك تخدعنى أو تدهننى فى هذه الصفقة ، وأقسم لك بشرفى وشرف « بيزنطية » لو كان هذا الوطن وطنى وكانت تربته مدفن آبائى وأجدادى لما بعتك ذرة واحدة من ترابه بجميع عروش الارض وتيجانها

فاصفر الجاسوس واربدوجهه وقال : اننا ماجتمعناهنا لتفسير معنى الفتوح والاستعمار ، بل لأعرض على زوجك هذا العهد السلطاني بتقليده ملك البلقان وإلباسه تاجه إن هو تمكن من إخلاء التخوم من حراسها وسهل لجيشنا سبيل اجتيازها ، فان قبل فذاك ، أو لا ، عدت بعد ثلاثة أيام الى مركز الجيش ورفعت الامر الى سلطانى وقائدى ، وعادت الحرب الى شأنها الأول أو أشد ، ولا يعلم الا الله متى تنتهى وماذا تكون عاقبتها

فتناولت منه العهد وقالت له سنلتقى بعد ليلتين أو ثلاث ، وسأخبرك بما تم عليه الاتفاق

فقام إلى مكانه الأول وأخذ يضرب على قيثارته بعض الاناشيد الدينية ، وما هى الا لحظة حتى عادت الوصيفة وكان الليل قد انتصف فاستأذن للانصراف وانصرف

﴿ الأمل ﴾

الحب شقاء كله ، وأشقى المحبين جميعاً أولئك الذين يحبون بلا أمل ولا رجاء

إنهم يذرفون دموعهم وهم عالمون انهم يسكبونها فى أرض قاحلة جدباء لاتنبت لهم راحة ولا سعادة ، ويسهرون ليالِيَهم وهم يعتقدون أن ظلماتها لاتنحسر عن فجر منير أو صبح سعيد ، ويطرقون برءوسهم فى خلواتهم لا ليفكروا متى تنتهي أيام شقائهم أو تبتدئ أيام سعادتهم ، فحياتهم كلها شقاء لافرق بين أمسها وغدها وحاضرها ومستقبلها ، بل ليفكروا متى يرحلون عن هذه الدار ليستريحوا من آلامها وهمومها ، فان كان لابد لنا من أن نذرف قطرة من دموعنا على شقى فى هذه الارض فلنذرفها على والد ثكل ولده فى ريعان شبابه أحب ما كان اليه ، وألصق

ما كان بقلبه ، من حيث لا أمل له فى رجعته ، ولا رجاء فى لقائه ، أو عاشق علم فى ساعة ما كان يتوقعها أن حبيبته قد تزوجت من غيره ، وانها ستسافر اليوم أو غداً إلى وطن ناء لا رجعة لها منه أبد الدهر ، فوقف أمامها يودعها وداعاً لا يقول لها فيه : إلى الغد أو إلى الملتقى ، ولا يأخذ عليها فيه عهداً أو ميثاقاً ، بل يصمت صمتاً تذوب فيه كبده القريحة ذوبا ، حتى إذا غابت عن بصره وانقطع آخر آثارها رجع أدراجه وهو يعلم أن لا نصيب له فى العيش بعد اليوم ، وأن هذا آخر عهده بالحياة ، أو فتاة بائسة مسكينة كتب لها شقاؤها أن يعلق قلبها بعظيم من عظماء الحياة المدلين بأنفسهم ومكانتهم ، فلا تستطيع الصعود اليه فى سمائه ، وليس من شأن مثله أن يهبط اليها فى أرضها ، فهى تبكيه ولا يشعر ببكائها ، وتهتف باسمه ليلها ونهارها ولا يسمع نداءها ، ولا يزال هذا شأنها حتى يوافيها أجلها فيريحها

كذلك كان شأن مليتزا فانها أحبت سيدها حب العابد آلهه المعبود ، وافتتنت به افتتاناً كانت تحسبه فى مبدأ أمرها عاطفة ولاء وإخلاص فاذا هو لوعة الحب وحرقة الغرام ، ولكن أنى لها وهى الفتاة النورية الساقطة المسكينة أن يمتد بها مطمعها الى ذلك الكوكب النائي فى سمائه ، أو أن تمت اليه بسبب

من تلك الاسباب التى يمت بها الناس بعضهم الى بعض ، فكانت وهى أقرب الناس اليه أبعد الناس عنه وأنآهم من مكانه ، لا تستطيع أن تتجاوز فى موقفها معه منزلة الخادم من المخدوم ، والسيد من المسود ، والصنيعة من صاحب النعمة

وكان يقلقها أشد القلق ويكاد يذيبها حياء وخجلا خوفها أن يطلع منها على سريرة نفسها ، أو أن تعثر يوماً من الايام بتلك اللوعة المتأججة فى صدرها فيتهمها فى عقلها ويسخر بينه وبين نفسه بتصوراتها وآمالها ، فكانت تفر من نظراته كلما وقعت عليها حتى لا يرى فى عينيها أثر الدمع ولا حمرة السهر ، وتهرب من الخلوة به جهدها حتى لا يرتاب فى اصفرار وجهها واضطراب أوصالها وذهول عقلها ولجلجة لسانها ، أى انها كانت محرومة كل شىء حتى تلك اللذة الضئيلة التى يتمتع بها أقل المحبين حظاً ، وأخيبهم فى الحب سهما ، وهى الإفضاء بمكنون صدرها الى ذلك الذى تحبه وتعبده ، وكان كل ما يعرف قسطنطين من شأنها أنها فتاة مخلصة وفية تحبه حب العبد الشكور لسيده المنعم ، وكان يجد فى بلاهتها وسذاجتها وطهارة قلبها ونقائه وصدق لسانها واخلاص قلبها ملهاة يتلهى بها عن همومه وأحزانه ، ومتكأ يتكئ عليه فى ساعات أعيائه ونصبه ، لا يزيد على ذلك شيئاً ، فكانت إذا جن

الليل وأخذت الجنوب مضاجعها جلست فى فراشها تساهر الكوكب وتطالعه ، وتزفر زفرات حرى موجعة وهى لا تعلم ماذا تشكو ولم تبكى ، لانها لا تعرف لها غرضاً ولا غاية ، ولو استطاعت أن تفهم من شؤون نفسها ما يفهم الناس من شؤون نفوسهم لعرفت انها انما تبكى على أن ليس لها فى الحياة كما للناس أمل ولا رجاء

هذا هو الحب الطاهر البرىء الذى لا تشوبه الاغراض والغايات ، ولا تحيط به الريب والشكوك ، والذى طالما نشده الناس فى كل مكان فاضناوه ، وذابت قلوبهم حسرة عليه فلم يجدوه ، وأى سعادة فى الدنيا أعظم من سعادة نفس تجد بين يديها نفساً طاهرة مخلصة تحبها وتعبدها ، وتمتزج بها امتزاج الماء بالخمر ، والاريج بالزهر ؟ ولقد ظفر قسطنطين من تلك الفتاة بهذه النفس المخلصة المتعبدة التى تحزن لحزنه ، وتفرح لفرحه ، وتغضب لغضبه وترضى لرضاه ، ولا تعرف لها وجوداً منفصلا عن وجوده ، ولا حياة مستقلة عن حياته ، فكانت منه بمنزلة المرآة من الوجه ، تقطب إذا قطب ، وتبتسم اذا ابتسم ، وتطير فرحاً وسروراً بانتصاراته ، وتذوب كمداً وحزناً لآلامه وأحزانه ، وتحب أباه حبه إياه وتنفر من زوج أبيه نفوره منها ، وهو وان لم يكن يفاتحها

فى شأن من شؤونه الخاصة ولا يفضى اليها بسر من أسرار بيته وعلائق بعض أفراده ببعض ، إلا انها كانت تشعر أن تلك المرأة اليونانية الدخيلة خطر عظيم على الوالد والولد بل على الامة بأسرها وكان شعورها هـذا يقودها الى مراقبتها وملاحقتها فى كل مكان وترصد حركاتها وسكناتها علها تهجم منها على ذلك السر الهائل الذى تتوهمه توهماً ولا تعرفه ، فتكشفه وتمزق عنه الستار ، حتى واتاها القدر يوماً من الايام فعثرت به

﴿ السر ﴾

رجع قسطنطين من بعض غزواته فدخل على مليتزا فرآها مطرقة واجمة فلم يلق لهـا بالا وخلع رداءه ثم جلس على كرسيه جلسة الراحة والسكون ، وإنه لكذلك إذ طرق مسمعه صوت تلك القيثارة البديعـة التى كان يسمعها من حين الى حين تصدح فى قصر أبيه فطرب لها طرباً شديداً ، وافتر ثغره بعد عبوسه ، ثم نظر الى مليتزا وهى جالسة تحت قدميه فرآها مصفرة مغبرة الوجه ذاهلة كان نكبة من النكبات العظام قد نزلت بها ، فعجب لامرها وقال لها : ألا تطربين منى ياملیتزا لهـذه النغمات الشجية البديعة ؟ فرفعت رأسها اليه وكأن دمعة لامعة تترقرق فى عينيها

وقالت له لا يامولاى ، فدهش لقولها وقال ولم ؟ قالت لانى لا أحبها ، قال ولم لاتحبينها ؟ قالت لانى لا أحب صاحبها ، قال وهل تعرفينه ؟ أليس هو ذلك الرجل البائس المسكين الذى يختلف الى الأميرة من حين الى حين ليُسمعها أناشيد قومها وأغانيهم فتعود عليه ببعض نوالها ؟ قالت انه ليس بسائل ياسيدى ولا مسكين ، بل هو الضابط العظيم ابراهيم بك أحد قواد الجيش التركى ، فانتفض قسطنطين مذعوراً واستوى فى مكانه جالساً وقال ماذا تقولين ؟ قالت انى كنت مخدوعة به قبل اليوم حتى رأيته ليلة أمس واقفاً تحت شجرة وارفة من أشجار الحديقة يصلى صلاة المسلمين مطرقاً خاشعاً مستقبلاً قِبلتهم فارتبت فى أمره ثم دنوت منه وأنعمت النظر فى وجهه من خلال بعض الأغصان من حيث لا يشعر بمكانى فعرفته وذكرت انه ذلك البطل العظيم الذى كنت أراه فى معسكر الجيش التركى لايزال مرافقاً للقائد الكبير يسير فى ركابه حيث سار ويتنقل معه فى غدواته وروحاته ، وان غابت عنى معرفته فلن تغيب عنى معرفة تلك الشجة الهلالية الواضحة فى جبينه وذلك الخال الأسود المرتسم تحت عينه اليسرى ، بل أعرفه من تلك النغمات الشجية التى يغنيها الآن . .

وهنا توقفت عن الكلام واضطربت وكأنّ كلمة حائرة تختلج

بين شفتيها ، فعجب قسطنطين لأمرها وسألها مابالها ؟ فأطرقت هنيهة ثم رفعت رأسها فاذا دمعة تتحدر على خدها واستمرت فى حديثها تقول : نعم اننى أعرفه من تلك النغمات التى كان يدعونى الى الرقص عليها فى خيمته فى المعسكر وهو جالس بين صحبه وخلانه من قواد الجيش ورؤسائه يغنيهم ويطربهم فأرقص أمامهم رقص الطائر المذبوح وفؤادى يتمزق لوعةً وأسًى لاأهنُ ولا أفترُ ولا أستعفى ولاأعتذر مخافة أن يرى سيدى الجندى ذلك منى فيعاقبنى ، فقد كان يحاسبنى على الضعف والعجز والحياء والخجل والتلوم والاحتشام محاسبة القاضى المجرمين على الذنوب والآثام ، فاعذرنى ياسيدى ان بكيت لحظة بين يديك ، فاننى وان كنت وُلدت فى مهد الشقاء ونشأت فى حجر البؤوس والآلام فقد كانت تلك الأيام التى قضيتُها فى ذلك المعسكر أو فى بؤرة السقوط والعار أشقى أيامى وأعظمها شدة وبؤساً ، لا أذكرها الا بكيت لذكراها ، وأسبلت ردائى على وجهى حياء منها وخجلا

على اننى أحمد الله اليك فقد بسطت الىَّ يد رحمتك واحسانك واستنقذتنى من مخالب ذلك الشقاء أيأس ما كنت من الخلاص منه ، أحسن الله اليك ، وهون عليك همومك وآلامك

وكانت تتكلم وقسطنطين لاهٍ عنها بقصة ذلك الجاسوس لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ثم التفت اليها وقال لها اذن هو جاسوس متنكر ، قالت ذلك ماأعتقده يامولاى ولا أرتاب فيه ، فظل يدور فى الغرفة دورة الهائم المختبل لايهدأ ولا يتريث وظل على ذلك ساعة ثم انقضّ بغتةً على ردائه فاختطفه وخرج من الغرفة مسرعا فادركته ميلتزا وتعلقت باطراف ثوبه وقالت له أين تريد يامولاى ؟ قال اريد أن أقبض على ذلك الجاسوس المجرم وأرفع أمره الى الأمير ليرى رأيه فيه ، قالت ان القيثارة قد انقطع صوتها ولا بد أن يكون قد ذهب لسبيله فدعه وشأنه ، قال لابد لى من أن أكشف أمره على كل حال حتى لايعود الى هذا المكان مرة أخرى ، قالت أضرع اليك ياسيدى أن تملك نفسك وأن تهدأ لحظة واحدة حتى أتمم لك بقية حديثى ، فجمد فى مكانه وقال لها ماذا عندك بعد ذلك ؟ قالت ان كنت تريد أن ترفع أمر الرجل الى أبيك ليعرف حقيقته فاعلم انه يعرفه حق المعرفة بل هو أعلم به منى ومنك ، فثار ثائره وصرخ فى وجهها قائلا ماذا تقولين أيتها الفتاة ؟ وجرد سيفه من غمده وأهوى به عليها ليقتلها ، فاستخذت له ومدت اليه عنقها وقالت اضرب يامولاى فدمى حلال لك ، وان شئت فاستمع منى كلمة واحدة قبل أن تفعل ، فان

شرفك وشرف بيتك رهن بما أقول ، فجمد السيف فى يده وظل شاخصاً اليها ينتظر كلمتها فقالت : نعم قد تم الاتفاق بين أبيك وزوجته وذلك الجاسوس التركى على أن يخلى أبوك تخوم المملكة من حراسها هذه الليلة لتتمكن الجيوش التركية من اجتيازها ، فان فعل أصبح فى الغد سيد البلقان ومليكها : قال ومن أين لك علم ذلك ؟ قالت قد سمعت الحديث الذى دار بينهم فى هذا الشأن ورأيت ورقة منشورة بين أيديهم يقرءونها ويتداولونها وما أحسبها الا وثيقة العهد الذى تعاهدوا عليه ، فان كنت لاتزال فى ريب من ذلك فدونك الغرفة المجاورة لغرفة الأميرة فادخلها برفق وهدوء وضع أذنك على خصاص الباب المغلق بينهما كما صنعت أنا منذ ساعة تسمع مايتحدثون به ولك حكمك بعد ذلك

فشعر قسطنطين ان الأرض الفضاء تدور به ، وأن الشمس قد لبست قناعها الاسود فما يرى شعاعاً من أشعتها ، وان فرائصه ترتعد وتصطك فما تكاد تحمله ، فتراجع الى جدار قائم وراءه فأسند ظهره اليه حتى هدأ قليلا ثم مشى يتحامل على نفسه حتى دخل الغرفة التى وصفتها له ميلنزا ومشى الى الباب الموصد بين الغرفتين ووقف بجانبه يتسمع فلم يسمع شيئاً حتى ظن أن الغرفة خالية ثم سمع صوت أبيه فانتبه وتجمع للاصغاء فاذا هو يقول لزوجته بصوت

خافت متهدج : هل سافر الرجل ؟ قالت نعم ياسيدى وما أحسب الا انه تجاوز أطراف التخوم الساعة فان جواده أفره الجياد وأسرعها ، فصمت ولم يقل شيئاً فدنت منه وقالت له بنغمة حلوة ساحرة ، ما هذا الاصفرار الذى يكسو وجهك ياميشيل؟ وما هذه الكآبة السوداء التي تتدجّى فى عينيك ؟ فهل أنت نادم على ما كان ؟ قال لا ولكننى أخشى الفشل ، قالت لا أعرف للفشل باباً يمكنه أن يدخل عليك منه ، فأنت قائد الجيش وصاحب الأمر والنهى فيه ، فان كان كل ما يغنيك من الأمر الا تظهر يدك فى هذا العمل فقم الساعة والبس ثياب أحد الحراس واذهب الى مكان الحارس الأول القائم على حراسة الراية الاولى وارقبه حتى تأتى ساعة انصرافه واستبداله فاظهر له كأنك الحارس الذى يخلفه فى مكانه واهتف له بكلمة السر التى بثثتها الليلة بين جنودك ، وحراس المداولة كثير لا يكاد يعرف بعضهم بعضاً ، فاذا انصرف لشأنه أخذت مكانه من حيث لا يعلم من أمرك شيئاً ، حتى اذا رأيت الجيش التركى مقبلا فى منتصف الليل وعلمت أنه قد أشرف على التخوم وملك رأس الطريق الى « فيدين » عدت أدراجك الى القصر متنكراً كما ذهبت لم يشعر بك أحد فى ذهابك أو ايابك ، وكأننا قد فوجئنا بهذه النازلة

مفاجأة لا تملك معها للأمر دفعاً ولا رداً

فطارت نفس قسطنطين شعاعاً عند سماع هذه الكلمات وكاد يصرخ صرخة عظمى يرتج بها القصر وأرجاؤه لولا أنه طمع فى أن يسمع من أبيه كلمة شرف واباء تهدم صرح تلك الخيانة الذى تبنيه يد زوجته ، فأرهف أذنيه ليسمع جوابه ، فسمعه يقول بنغمة الفارح المغتبط بعد كلام كثير لم يفهمه : نعم هذا هو الرأى السديد ، ولقد أمنت الآن كل شىء : فأتينى بلباس الحارس فقد عزمت ولا مرد لعزمى ، فتهافتت على عنقه وقبلته قبلة طويله رن صوتها فى أرجاء الغرفة ثم ذهبت لشأنها

فما سمع قسطنطين هذه الكلمة حتى أظلمت عيناه واكفهر وجهه وتداركت ضربات قلبه وحاول أن يصيح نخانه صوته فسقط مغشيا عليه ولكن بين ذراعى ميلتزا لأنها كانت واقفة وراءه ترصده من حيث لا يشعر بمكانها ، حتى اذا هوى تلقته بين ذراعيها وقادته الى غرفتها

﴿ الجريمة ﴾

جثم الليل فى مجثمه ونشر أجنحته السوداء على الكون باجمعه فهجع تحت ظلالها الاحياء جميعاً من بشر وحيوان . ولم يبق ساهراً

وسط هـذا السكون المخيم الاعينا القائد برانكومير فى شعب تراجان يديرهما ههنا وههنا ، فينظر بهما تارة أمامه وأخرى وراءه ليرى هل يرصده أحد أو يتأثر حركاته وأعماله ، ويقلبها أحيانا فى صفحة السماء فيرى عيون النجم محدقة فيه فيخيل اليه انها عيون الله ناظرة اليه نظرات الوعيد والتهديد ، وكأن صائحاً يصيح به من جوانب الملأ الأعلى « اصنع ما تشاء أيها الرجل الخائن واكتم عملك عن عيون الناس جميعاً فانى ناظر اليك ومسجل عليك هذه الخيانة العظمى التى تجنيها على وطنك وقومك » فيتضاءل ويتصاغر ويمر بخاطره قول أمه له فى عهد طفولته فيما كانت تمليه عليه من آداب الحكماء وأقوالهم (إن كواكب السماء ونجومها تشهد بين يدى الله على جميع جرائم البشر التى ليس لهـا شهود) ، ثم لا يلبث أن تسرى عن نفسه ويذهب به خياله إلى الملك وعرشه ، وتاجه وصولجانه ، وعزه ومجـده ، ثم يلقى نظرة عامة على الجبال المحيطة به ، والسهول المنبسطة من حوله ، والانهار المائجة بأشعة النجوم ولألائها ، فيقول . غداً تصبح هذه الجزيرة كلها جزيرتى وأهلها خـدمي وحشمى ، يأتمرون بأمرى ، ويذعنون لقوتى وسلطانى ، وغداً يتلألأ التاج على جبين بازيليد فتصبح أسعد نساء العالم جمعاء وأصبح بسعادتها أسعد رجاله ، ثم يخيل اليه كانه يرى

بازيليد ماثلة بين يديه تنظر اليه نظراتها الساحرة الفاتنة فيمد ذراعيه لاستقبالها ويناجيها قائلا

انني لا أزال على العهد الذى عاهدتك عليه مذ فارقتك حتى الساعة ، لم أندم ولم أتردد ، ولا مر لى بخاطر أن أحفل بشىء فى العالم سوى أن أنيلك البغية التى تبتغينها

أن القبلة التى وضعتها على شفتىّ منذ ساعة قد أثلجت صدرى وسكنت جميع مخاوفى ووساوسى ، فانا أقدم على الجريمة إقدام الهادىء المطمئن ، لا أشعر بثقلها ، ولا أفكر فى نتائجها ، بل لا أشعر انها جريمة يخفق لها قلبى خفقة الاسف والندم

لقد أقسمت لك على الوفاء بالعهد ولا بدلى من أن أبر بقسمى ولو كنت أقسمت لك على حرمان نفسى منك — وأنت الحياة التى لا حياة لي بدونها — لاستحييتك أن أحنث فى قسمى أو أن أخيس بعهدى

أقسمت لك أن أخون وطنى ، وها نذا أخونه كما أردت راضياً مستسلماً لا أندبه ولا أرثى له ، فرضاك هو الوطن كله ، بل هو الدنيا بأجمعها ، فليذهب الوطن كله ، وليفن العالم بأسره ، فأنت لى كل شىء فيهما

وكان يحدث نفسه بهذا الحديث وهو جالس على رابية مرتفعة

فى شعب « تراجان » تحت القوس الرومانى بجانب هضبة عالية من الحطب أعدت للاحراق انذاراً للجيش بالعدو عند زحفه ، وكانت الهضبات المحيطة بتلك الرابية أو المبعثرة من حولها سوداء قاتمة تتراءى فى ظلمة الليل ووحشته فى صور وحوش مخيفة هائلة فاغرة أفواهها ، أو مقعية على أذنابها ، أو متوثبة للهجوم ، فلا يقع نظره عليها حتى يطير قلبه شعاعاً ، فيسرع الى الاغتماض فلا يفارقه خيالها إلا بعد حين

وما كان الرجل جباناً ولا رعديداً ، فهو بطل البلقان وحاميه وسيد من أنجبت به ميادين قتاله وساحات نزاله . ولكنها الجريمة تنتزع قلب المجرم من بين جنبيه وتغشي على عينيه البصيرتين فيصبح بلا قلب وبلا نظر ، يرى مالا يراه الناس ويخشى مالا يخشونه ، فهو لا يخاف الوحوش والهوام والجن والشياطين والصخور والاحجار بل يخاف جرائمه وآثامه

وإنه لكذلك اذ خيل اليه أن أحداها تتحرك من مكانها ، وتتحلحل تحلل الليث المتوثب ، فاستطير قلبه فرقا ورعباً ، وحاول أن يتهم نظره ويسترب به فلم يستطع ، لانه ما لبث أن رأى فى ذروة تلك الهضبة رأساً يتحرك وينظر اليه بعينين متقدتين فصرخ صرخة الكلب الجبان الذى ينبح الشبح المقبل نحوه

لاجرأة واقداما ، بل جبنا وفرقا . وقال من هناك ؟ فانحدر الشبح اليه من أعلى الهضبة وقال له بصوت خشن أجش : لاترتع يا أبت فأنا ولدك قسطنطين . فوثب من مكانه وثبة الملسوع وقال له بصوت متهدج مختنق : ماالذى جاء بك إلى هنا ؟ ومن أنبأك انى فى هذا المكان ؟ قال له وأنت ما الذى جاء بك الى هنا يا أبت ؟ وماذا تريد أن تفعل ؟ إنني اسألك عن مثل ما تسألنى عنه ، فأسقط في يده وطار طائر عقله وأحس بالخطر المقبل إلا أنه تجلد واستمسك وقال بلهجة الآمر المسيطر : وماسؤالك عن مثل هذا أيها الفتى الجرىء ؟ وما شأنك بى وبما أفعل ؟ وكيف فارقت حصنك فى هذه الساعة من الليل ؟ ومن أذنك بذلك ؟ قال لم أستأذن فى ذلك أحداً غير واجبى ، انى أعلم كل شىء يا أبت ، واعلم انك ما جئت الى هذا المكان إلا لترتكب أفظع جريمة يرتكبها انسان فى العالم . فصاح برانكومير وهو يتميز غيظاً وحنقاً كذبت أيها الغلام الوقح ، واجترأت على مالم يجترىء عليه أحد من قبلك ، عد الآن إلى حصنك ، ولا تبق بعد صدور أمرى اليك لحظة واحدة ، فان حاولتنى فى ذلك فأنت أعلم بما يكون ، إنك لاتفهم شيئاً من أسرارى وخويصات نفسى . وليس لك أن تسألنى عنها لانك جندى والجندى لا يسأل قائده بل يأتمر

بأمره ولو كان الموت الزؤام ، عد الى مخفرك وتول حراسته بنفسك ولا تأذن لجفنك بالغمض لحظة واحدة ، وسأحدثك غداً فى هذا الشأن حديثاً طويلا تعلم منه كل شىء

فتضعضع قسطنطين أمام هذه اللهجة الرزينة الهادئة وجثا على ركبتيه بين يديه وقال له : عفواً يا أبت فقد أخطأت في سوء ظنى بك فأنت أشرف من أن تضع نفسك حيث أرادوا أن يضعوك ، وما أحسب كلمتك التى قلتها للاميرة منذ حين فى تلك الخلوة الرهيبة إلا كلمة مزح ودعابة أردت بها مداراتها وملاينتها ، أو الهزء والسخرية بها حتى إذا فصلت عنك وخلا بك مكانك محوت بظهر يدك عن فمك تلك القبلة الاثيمة التى ختمت بها ذلك العهد الاثيم ، ثم قلت لها فى نفسك انى قد عاهدت الله أيتها المرأة البلهاء قبل أن أعاهدك على أن أكون أميناً لوطني ووفياً له فلا أحفل بعهد غير هذا العهد ولا بيمين غير تلك اليمين ، ثم خفت أن تكون قد استرابت بك أو مرت بخاطرها خلجة شك فى أمرك فأخذت للامر حيطتها من طريق غير طريقك فجئت بنفسك لتتولى حراسة التخوم وحمايتها ، حتى إذا شعرت بسواد الجيش التركى مقبلا اشعلت النيران إنذاراً لجيشك بالخطر الداهم وخيبت آمال أعدائك فى ما يكيدن لك ولقومك

أليس كذلك يا أبت ؟ نعم انه كذلك بلا شك ولا ريب فأشعل النار الآن ودعها تسطع فى هذا الفضاء الواسع ، وتبدد بلألائها هـذه الظلمات المتكاثفة ، فانى اشعر بسواد مقبل من بعيد يتقدم شيئاً فشيئاً وما أحسبه إلا فيالق العدو وجيوشه ، أنظر يا أبت واخترق بنظرك هـذا الفضاء الشاسع ألا ترى تحت خط الافق أشباحاً تتحرك وتتقدم ؟ إنه ليخيل إلى انها أعلام الجيوش التركية تخفق فى أجوائها ، وربما لا تمضي ساعة أو بعض ساعة حتى تكون قد وصلت الى هنا .

أسرع باشعال النار ، أو عد أنت الى قصرك وخذ لنفسك راحتها فيه ودعنى أتولى عنك أشعالها ، فالخطر موشك أن يقع مامن ذلك بد

مالى أراك جامداً يا أبت ؟ وما هذا الذهول الذي يتوك ؟ أشعل النار أو تنح عن طريق لاشعلها ، أشعلها فالوقت أضيق من التأمل والتفكير

فرفع برانكومير رأسه ونظر الى ولده نظرة جامدة وقال له . اذن انت تتهمنى ياقسطنطين وترتاب بى ، ما اشقانى وأسوأ حظي ، ولدى وفلذة كبدى ووارث اسمي ولقبي يتهمنى ويتجسس على ويقف وراء الابواب ينظر من خصاصها ليسمع

ما يدور بيني وبين زوجي في خلوتي ! فيا للعار ويا للشقاء ، أيها الولد العاق المسكين ! إذهب لشأنك فاني أريد أن أبقى هنا الليلة وحدى ، ولا تجازف بمخالفة أمر قائد تعود أن يأمر فيطاع ، وليس من شأن مثله أن يصبر لحظة واحدة على مخالفة أمره ، إنني سأبقى هنا وحدى ، وسأشعل النار بنفسي عند ما أريد اشعالها ، فلا حاجة بي الى مشورتك ومعونتك ، عد ادراجك الى حصنك ولا تضف إلى جريمة التجسس على أبيك جريمة معاندته ومخالفة أمره ، واعلم أنك الآن جندى أمام قائده ، لا ولد بين يدى أبيه

فأنّ قسطنطين وتأوه آهة طويلة وقال : وارحمتاه لي ولك يا أبت ، إن الامر صحيح لاريب فيه والجريمة على وشك الوقوع

ثم صمت صمتاً طويلا لا تطرف له فيه عين ولا تنبعث له جارحة ثم انتفض فجأة وصاح بلهجة شديدة صارمة : أبي ! انني سأبقى هنا

فدهش ميشيل لعناده وصلابته وقال له : ما أراني الآن الا أمام عدو لدود ، لا ولد بار مطيع ، قال لا أبت بل أمام ولد بار مطيع ، ولولا ذلك ما جشمت نفسي مشقة المجيء اليك في هذه الساعة من الليل ولا وقفت أمامك هذا الموقف الخطر المميت ، انني لم

أفعل ذلك من أجل نفسى بل من أجلك ومن أجل شرفك ، إنى أحبك كما أحب وطنى ، وما على وجه الارض شىء أحب إلى منكما ، وكما أتمنى له أن يعيش حراً مستقلا ، أتمنى لك أن تعيش شريفاً عظيما ، فاذا ضاع وطنى وكان ضياعه على يدك انت فقدت فى ساعة واحدة جميع ما أحب فى هذه الحياة ، فارحم ولدك المسكين الذى لا يزال يضمر لك فى قلبه حتى الساعة ذلك الحب القديم الذى تعرفه واستبق له تلك السعادة التى لم يبق له فى الحياة سعادة غيرها ، تنح قليلا عن طريق وائذن لى أن أصل الى هذه الرابية لاشعل نارها فيراها حراس الروابى جميعاً فيشعلوا نيرانهم فينهض الجيش للدفاع عن الوطن ، فقد أزفت الساعة ولم يبق سبيل للاناة والتفكير

ثم اندفع الى مكان الرابية مسرعاً فاعترضه أبوه ووقف في وجهه وقفة الصخرة العاتية فى وجه الريح العاصف وقال له : لا آذن لك بالتقدم خطوة واحدة ، ودون ما تريد الموت الزؤام

فطاش عقل قسطنطين وجن جنونه وقال له : احذر يا أبت فان فى هذه السماء المشرقة علينا بنجومها وكواكبها إلهاً ينتقم من الظالمين ، ويجازى الخائنين بخيانتهم شر الجزاء ، وما أنت بناج من عقابه ، ولا مفلت من جزائه ، لقد حدثتنى نفسى فى تلك

الساعة الهائلة التى سمعتك فيها تؤامر على وطنك وأمتك بأفظع ماتحدث به نفس صاحبها ، وكنت على وشك أن أرفع أمرك الى الملك أنت وزوجك وأكشف له دخيلة أمركما فلم أفعل لانى ضننت بك على الموت الدنىء الذى يموته الخائنون المجرمون أمثالك ، وأشفقت على ذلك الشرف العظيم الذى بلغ فى علوه مناط السماك الاعلى أن يصبح مهاناً مذالا تدوسه الاقدام ، وتطؤه النعال ، وكرهت أن يمر السابلة من رعاع الناس وغوغائهم على قبرك بعد موتك فيبصقوا عليه كانما يبصقون على قبر الشيطان ، وربما نبشوا عن جثتك تشفياً منك وانتقاماً فأخرجوها من قبرها وأسلموها الى جوارح الطير وكواسر الوحش تمزق اشلاءها وتبعثر عظامها

أشفقت عليك من كل هذا وأشفقت على نفسى أن يرانى الناس فى طريق فيشيروا إلى بأصابعهم ويقولوا هذا هو الوالد السافل الدنىء الذى وشى بأبيه وأورده مورد التهلكة ، فبئس الولد لبئس الوالد ، ولا يلد الخونة المجرمون غير الادنياء الساقطين . فنهنهت نفسى وملكت عليها زمامها وقلبى يذوب حزناً ولوعة وقلت لعلنى أستطيع أن أتدارك الامر من طريق غير تلك الطريق وأن أتمكن فى آن واحد من انقاذ أبى وإنقاذ وطنى من حيث

لا أخسر واحداً منهما فى سبيل الآخر ، فجئت وقلبى مملوء أملا ورجاء

أما الآن وقد يئست من كل شىء فانى أكاد أشعر بالندم على ضياع تلك الفرصة التى ملكتها ساعة من الزمان فسرحتها ولم انتفع بها ، وكأن صوتاً خفيا يهتف بى من أعماق قلبى : إنك قد اشفقت على نفسك مرة وعلى ابيك اخرى ولم يخطر ببالك لحظة واحدة ان تشفق على وطنك وقومك

فاسألك مرة أخرى ياسيدى وربما كانت هى المرة الاخيرة أن تتنحى عن طريقى فانى قد عزمت عزماً لا مرد له أن أقتحم هذه الزابية لاضرم نارها رضيت أم أبيت ، سقطتِ على السماء على الارض ، أم بقيت فى مكانها

فأطرق برانكومير لحظة ذهبت به فيها الهموم والافكار كل مذهب ، ثم رفع رأسه فاذا دمعة كبيرة تترقرق فى عينيه ونظر الى ولده نظرة عتب وتأنيب وقال له : نعم يابنى انك قد اخطأت خطأ عظيما إذ اضعت الفرصة العظيمة التى لاحت لك وقد كان جديراً بك ان تفترصها ولا تسرحها ، وان تلقى فى عنق أبيك فى تلك الساعة التى رابك فيها من أمره ما رابك غلا ثقيلا تقوده به الى حضرة الملك متهماً اياه بجريمة الخيانة الكبرى ليأمر بقتله فتمتع نظرك برؤيته مصلوبا على باب المدينة والجماهير من

حوله يبصقون على وجهه ويصفعون قذاله ويرجمونه بالحجارة على مرأى من ضباطه وجنوده وأسرته وأصدقائه ، وربما اشترك هؤلاء جميعاً معهم فى عملهم

نعم انها فرصة ثمينة جداً قد أضعتها بترددك وتحيرك ، وقد كان جديراً بك أن تقدم إقدام العازم المصمم كما كان يفعل أبوك لو كان فى مكانك ، فقد عودت نفسى أننى اذا عزمت على أمر لا أتردد فيه ولا أتريث ، وقد عزمت الآن على أن لا أشعل هذه النار فلا أشعلها ولا آذن لك باشعالها ، بل لا آذن لك بالتحرك من مكانك خطوة واحدة

فوقف قسطنطين حائراً ملتاعاً يترجح بين اللهف على وطنه الضائع ، والاشفاق على أبيه المسكين ، لا يستطيع أن يخون وطنه الذى نبت فى تربته ، وعاش بين أرضه وسمائه ، ولا أن يَعُق أباه الذى أبرزه الى الوجود ووهبه نعمة الحياة التى ينعم بها ، فأسند رأسه الى صخرة كانت بجانبه خائراً متضعضعاً تتوارد فى رأسه الخواطر والأفكار ، يصارع بعضها بعضاً ، ويشتد بعضها فى أثر بعض ، حتى بلغ منه الاعياء مبلغه فنظر الى أبيه نظرة منكسرة حائرة تفيض حزناً ويأساً وقال

أيرضيك يا ميشيل برانكومير ، يا بطل البلقان وحاميها ، وأشرف من أنجبت به أصلاب رجالها وأرحام نسائها ، أن يملك العدو

علينا هـذه البلاد العزيزة الكريمة فيقتل أبناءها ، ويستحل حرماتها ، وينكس صلبانها ، ويهدم صوامعها ومعابدها ، ويخرس فيها كل صوت غير صوت الأذان على ذرى المنائر؟ قال نعم يرضيني ذلك لأنني أحسنت اليها فكفرت بنعمتي وجازتني شر الجزاء على صنيعي ، قال إن لم تفعل ذلك من أجلها فافعله من أجل ربك ، قال أى رب تريد ، إنني لا أفعل شيئاً من أجله فهو ممالئ مداج لا يحب الا قسوسه وكهانه ، ولا يرى رءوساً تصلح للتيجان غير رءوسهم الصغيرة الصلعاء ، ولكنني سأنتزع بالرغم منه ذلك التاج من ذلك الرأس الذى توجه به وأضعه على رأسي ، قال : ولكنك تعلم ياأبت أن التاج الذى يتناوله متناوله من يد عدوه ليس بتاج شريف ، قال ولكنه تاج على كل حال ، قال ألا تخاف أن يثقل يوماً على رأسك فيهبط الى عنقك ويستحيل الى طوق حديدى يخنقك ويقضى عليك؟ قال إنك تهينني ياقسطنطين وتهددني ، ولقد بلغت بوقاحتك الغاية التى لا غاية وراءها ، فتجمل قليلا ولا تنس انك إنما تخاطب أباك ، قال : عفواً ياأبت وغفراً فلقد بلغ بى اليأس مبلغه حتى أصبحت لا أفقه ما أقول

ثم دنا منه وأمسك بيده وأنشأ يخاطبه بصوت ضعيف متهافت ويقول :

عد الى نفسك لحظة واحدة ياأبت ، وراجع فهرس تاريخك الشريف ، واذكر تلك الايام المجيدة التى أبليت فيها فى الدفاع عن وطنك وقومك بلاء سجله لك التاريخ فى صفحاته البيضاء بأقلامه الذهبية ، وتلك الوقائع الحربيـة الهائلة التى كنت تستقبل فيهـا الموت استقبال العروس ابتسامات عروسه الحسناء ليلة زفافها ، وتضحك للهول فيهـا ضحك الزهر لقطرات النـدى ، والنبت لأشعة الشمس ، ثم تعود منها منصوراً مظفراً يستقبلك نساء القرى وفتياتها فى كل طريق مررت به بدفوفهن وعيدانهن يغنينك ويرقصن بين يديك ويرتشفن قطرات الدماء من كؤوس جراحاتك وينثرن الأزهار تحت قدميك وينادينك باسم المخلص العظيم وخليفة المسيح فى الارض

أذكر تلك الاعلام الوطنية التى تخفق على أبواب المـدينة وأسوارها ترنحها طرباً وسروراً عند رؤيتك ، وترامياها على قدميك كلما مررت بها كأنها تحاول تقبيلها ولثمها . واخش ان مررت بها بعـد اليوم أن تُشيح بوجهها عنك احتقاراً وازدراء ، وتضم أطرافها الى نفسها ترفعاً وإباء ، حتى لاتلمس جسمك ، ولا تخفق فوق رأسك

لاتبع أمتك ياأبت بعرض تافه من أعراض الحياة فالتاج

الذى يتناوله صاحبه من يد عدوه ليس بتاج الملك ، انما هو قلنسوة الاعدام

كيف يَهنؤك ذلك الملكُ وأنت ترى أمتك المسكينة راسفة فى قيود الذل والاستعباد تبكى وتستصرخ ولا منجد لها ولا معين ، وتئن فى يد عدوها القاهر أنين المحتضر المشرف ولا من يسمع أنينها ، أو يصغى الى شكاتها ؟

كيف يهنؤك ذلك العيش وأنت ترى أبناء وطنك أسارى أذلاء فى قبضة أعدائهم يسوقونهم بين أيديهم سوق الجزار ماشيته الى الذبح ، فان خفق قلبك خفقة الرحمة بهم أو العطف عليهم لاتستطيع أن تمد يدك لمعونتهم وانقاذهم ، لانك قد بعتهم ونفضت يدك منهم فلا سبيل لك اليهم بعد ذلك

أذكر يا أبت تلك الأيام التى لقى فيها هذا الشعب المسكين على يد هؤلاء القوم الظالمين ما لم يلق شعب فى الأرض على يد فاتح أو مغتصب ، أيام كنا غرباء فى أوطاننا ، أذلاء فى ديارنا ، نمشى فيها مشية الخائف المذكور ، وننتفض انتفاضة الهارب المتنكر ، لانعلم أيسقط الشقاء علينا من علياء السماء ، أم ينبعث الينا من أعماق الأرض ، وهل يخرج الخارج منا من منزله ليعود اليه ، أو ليرد المورد الذى لارجعة له منه أبد الدهر

أذكر أيام كانوا يملكون علينا كل شأن من شؤون حياتنا حتى زروعنا وضروعنا، ومياه أنهارنا، وأشعة شموسنا، فاصبحنا ولا شأن لنا فى وطننا إلا كما يكون لعمال المزرعة ونواطيرها من الشأن فيها، ويحصون علينا كل حركة من حركاتنا، وكل سكنة من سكناتنا، حتى نبضات قلوبنا وخواطر أفكارنا، وفلتات ألسنتنا، وأحاديث آمالنا، ويحاسبوننا على النظرة واللفتة، والانة والزفرة، والقومة والقعدة، ثم يقضون فينا بما شاءوا من أقضيتهم فلا ينحسر ظلام ليلة من الليالى إلا عن مصلوب تهفو به الرياح السافيات، أو طريح مرتهن فى أعماق السجون

أذكر أيام كانت كلمةُ الوطن جريمةً يعاقَبُ عليها قائلها بحرمانه من ذلك الذى يهتف باسمه، وكلمة الدين اثما عظيما يَذهب بصاحبه الى أحد القبرين، اما المنشور، واما المحفور

أذكر الدموع التى كانت تذرفها الأمهات على أطفالهن المذبوحين فوق حجورهن، والصيحات التى كانت تصيحها الزوجات والاخوات الواقفات بابواب السجون على أزواجهن واخوتهن، والزفرات التى كان يصعدها اليتامى الثاكلون على حافات القبور حنيناً الى آبائهم وأمهاتهم الهالكين

أذكر ذلك كله ولا تنسه، لا بل أنت تذكره وتعرفه كما تعرف

نفسك، لأنك أنت الذى قصصته علينا ومثلته لأعيننا وقلوبنا، وأريتنا من ويلاته ومصائبه ما لم نره، ولطالما كنت تبكى عند ذكراه بكاء الطفل الثاكل أمه فنبكى لبكائك وننشج لنشيجك

ألا تسمع هذه الاصوات المخيفة التى تحملها الينا الرياح من ذلك الجانب الغربى ؟ انها أصوات الموتى من جنودك وأبطالك يضجون فى قبورهم صائحين : واويلتاه ، هاهى السماء توشك أن تنقض على الأرض ، وهاهى أقدام العدو تدنو من تخوم البلقان وبطاحه ، وتوشك أن تطأ بنعالها قبورنا ، وتزعجنا من مراقدنا ، وهاهو قائدنا المحبوب برانكومير العظيم الذى سفكنا دماءنا وبذلنا أرواحنا فى سبيل ظفره وانتصاره يساوم عدونا فى وطننا ويحاول أن يبيعه نساءنا وأولادنا الذين تركناهم أمانة فى يده ، ففى سبيل الله ما سفكنا ، وفى ذمة القدر ما بذلنا

ألا تسمع هذه الهمهمة الهابطة علينا من آفاق السماء ؟ انها أصوات الملائكة الأبرار يصيحون ويصخبون وهم وقوف بين يدى ربهم يقولون له ، حتى متى يسع حلمك وأناتك هذا الخائن الغادر الذى يبيع أمة من أمم المسيح الى أعدائها وأعداء دينها ويسلم اليهم أرواحها وأعراضها ، فاقض اللهم فيه قضاءك العادل واضربه الضربة التى تجعله عبرة للخائنين ، ومثلا فى الغادرين ،

الىّ أيتها الذكريات القديمةُ والانتصارات العظيمة والأيام الغرُّ المحجّلة المكتوبة بمداد الذهب فى صفحات التاريخ ، مدى الىّ يد مساعدتك ، وأعينيني على ذلك الرجل البائس المسكين ، وتمثلى أمام عينيه لتذكريه بنفسك وتاريخك ، علّه يحمر خجلا عند رؤيتك ، ويقشعر بدنه رهبة من خيال الجريمة التى يريد ارتكابها

الى أيتها الفضائل الانسانية والكمالات العالية من شرف وعزة ، وترفع وإباء ، وأمانة واخلاص ، تعالين الىّ جميعاً واجنين معى بين يديه ، واضرعن اليه أن ينصفكن ، ويعدل فى أمركن ، ولا يقضى للرذيلة عليكن ، وقلن له : إنك إن خذلتنا ، ونفضت يدك منا ، فلن نجد لنا من بعدك ناصراً ولا معيناً

يا أطفال البلقان وصغاره الناشئين من فتية وفتيات ، أقبلوا اليه جميعاً : واجتمعوا من حوله ، وتعلقوا بأهداب ثوبه ، واسكبوا ما تستطيعون أن تسكبوا من دموعكم وشؤونكم تحت قدميه ، وقولوا له : رحمة بنا أيها الأب الرحيم والسيد الكريم وحناناً علينا ، لا تكلنا الى أعدائنا وأعداء وطننا ، ولا تجعل مستقبلنا ومستقبل بلادنا فى أيديهم يسومونا الخسف ويذيقوننا ألوان العذاب ، فان أبيت الا أن تفعل ، فجرد سيفك من غمده واقطع به أعناقنا

فذلك خير لنا من هذا العيش المؤلم المرير

وكان يتكلم ودموعه تنهمر على خديه دائبة ماتهدأ ولا ترقأ ، وأبوه يضطرب بين يديه اضطراب الدوحة الماثلة فى مهاب الرياح الاربع ويزفر زفرات محرقة ملتهبة ، وقد قامت فى نفسه تلك المعركة الهائلة التى تقوم فى كل نفس شريفة بين الواجب والشهوة ، يتمثل له الاول فى وجه قسطنطين العبوس المكفئب ، فيرتعد ويضطرب ، وتترا آى له الثانية فى وجه بازيليد الضاحك المشرق ، فيخور ويتضعضع ، لا يستطيع أن يعرض عن نداء وطنه ، لانه نداء يصل الى أعماق قلبه ويبلغ صميمه ، ولا أن يفلت من سلطان شهوته ، لانه سلطان قاهر جبار لا يفلت منه قوى ولا ضعيف فوضع احدى يديه على عينيه ومد الاخرى أمامه كأنما يطارد بها أشباحاً مخيفة هائلة تتقدم نحوه ، وظل يصيح بأعلى صوته : اصمت ياقسطنطين ، اصمت ياولدى ، لا أستطيع أن احتمل أكثر مما احتملت ، آه من القدر وأحكامه ، والدهر وتصرفاته ، وويلى من الشقاء المكتوب ، والبلاء الحتم ، من لى بيدقوية تنقذنى من هذا الشقاء المحيط بى ، فقد أصبحت وما على وجه الارض أحد أجدر بالرحمة والشفقة منى ، إلعنونى جميعاً يا أولادى وأبناء وطنى ، وانتقموا منى بافظع أنواع الانتقام ، فانى خائن لئيم

لاأستحق رحمتكم ولا مغفرتكم ، ثم صمت صوتاً عميقاً لا ينبس فيه ولا يتحرك وظل على ذلك هنيهة ثم نظر أمامه نظرة الدهشة والذهول فخيل اليه انه يرى شبحاً يتقدم نحوه فمد يده اليه وأخذ يناجيه ويقول : بازيليد ! ، ألا تستطيعين أن تحلينى من ذلك القسم الذى أقسمته لك ، فقد ضعف كاهلى عن احتماله واحتمال أثقاله ، لاأريد ملكا ولا تاجاً ، ولا عرشاً ولا صولجانا ، بل لاأريد أن أبقى على ظهر الارض يوماً واحداً ، الموت الموت ! من لى به فى هذه الساعة فأنجو من همومى وآلامى

فتهلل وجه قسطنطين غبطة وسروراً ووقع فى نفسه ان الرجل قد تلوّم واستخذى وبدأ يستفظع ذنبه ويستهوله ، فترامى على عنقه واحتضنه اليه وظل يقول بنغمة الفارح المغتبط : أحمدك اللهم فقد أنقذت لى أبي ، فحنا أبوه عليه وظلا متعانقين ساعة لا يسمع فيها الا تردد أنفاسهما ، ونشيج بكائهما ، ثم افترقا بغتة واشر أبابأعناقهما حينما سمعا فى لحظة واحدة حسيس جيش العدو وهو مقبل من ناحية الشمال ، وكان ماسمعاه فى هذه المرة حقيقة لا وهماً ، فارتجلا فى وقت واحد حركتين مختلفتين ، إذ وثب قسطنطين الى الرابية وثبة عظمى ليضرم نارها ، ووثب أبوه وثبة أعظم منها فاعترض سبيله وصرخ فى وجهه : قف مكانك ، لاتتقدم خطوة واحدة ، فأصاب

قسطنطينَ مثل الجنون وقال له تنح عن طريق أيها المجرم الاثيم فقد فرغ صبرى ، قال انك لا تستطيع أن تمر الا على جثتى ، فارتعد قسطنطين وبرقت عيناه وذهبت به الافكار مذاهبها وقال له : أى كلمة هائلة نطقت بها أيها الرجل الشقى ! وأى قضاء قضيت به على نفسك ! تنح عن طريق فان نفسى تحدثنى بأفظع ماتحدث به نفس صاحبها فى هذا العالم ، قال إنك لا تستطيع أن تقتل أباك ، قال أستطيع أن أفعل كل شىء فى سبيل وطنى ، إنى وقفت سيفى طول حيانى على خدمتك وحمايتك والذود عنك أيام كنتَ لوطنك وقومك ، أما الآن فانى أغمد ذلك السيف نفسه فى صدرك طيب النفس مبتلوج الفؤاد لانى اعتقد أنى لا أغمده فى صدر أبى ، بل فى صدر خائن وطنى ، قال لا تنس أن لى يداً أقوى من يدك ، وسيفاً أمضى من سيفك ، قال انى لا أجهل ذلك ، ولكنك تقاتل فى سبيل الدناءة والخيانة ، وأقاتل فى سبيل الواجب والشرف ، والله مطلع علينا من علياء سمائه ، وهو الحكم العدل بيننا ، فجرد برانكومير سيفه وهجم على ولده هجمة قوية فجرد الآخر سيفه وتلقى ضرباته بأشد وأنكى منها ، وما هى إلا جولة أو جولتان حتى حكم القاضى العادل حكمه فسقط الظالم ونجا المظلوم

فنظر قسطنطين الى جثة أبيه الساقطة تحت قدميه نظرة جامدة صامتة لايعلم الا الله ما وراءها ، ثم أغمد سيفه وصاح بأعلى صوته: رحمتك اللهم فانى لا أستطيع أن أفعل غير ما فعلت ، ثم هجم على الرابية فاشعل نارها فضاءت بها أرض البلقان وسماؤها

وفى اليوم الثانى نشر الملك ميلوش على الأمة هذا البلاغ : —

(حاول العدو ليلة أمس تبييت جيوشنا وأخذها على غرة وكاد يظفر بذلك لولا أن انتبهت الفرقة الاولى من الجيش ونهضت للدفاع بقيادة ضابطها العظيم قسطنطين برانكومير فابلت فى المعركة بلاء عظيما ووقفت العدوّ فى مكانه ساعة كاملة حتى نهضت بقية الفرق لمساعدتها ، فدارت معركة هائلة بين الجيشين انتهت بانتصارنا وانهزام العدو الى مواقعه الاولى ، ولكنّ المصاب العظيم الذى عم الجيش وشمل الامة بأسرها هو موت قائدنا العظيم « ميشيل برانكومير » فقد وجد فى أثناء المعركة قتيلا بضربة سيف فى خاصرته بين صخور تراجان تحت القوس الرومانى ، وسيحتفل بتشييع جنازته غداً احتفالا عسكريا جليلا يليق بمقام شهيد الوطن وبطله العظيم

أما الذى خلفه فى قيادة الجيش فهو ولده الضابط الشجاع منقذ الامة والوطن « قسطنطين برانكومير »

﴿ الضمير ﴾

مضى الليل إلا قليلا وقسطنطين ساهر فى فراشه لا يغمض له جفن، ولا يطمئن له جنب، لان مصرع أبيه فى شعب تراجان لا يزال ماثلا أمام عينيه مايفارقه لحظة واحدة، وكان كانه يرى الجثة بين يديه تتلوى وتتمرمر وتنظر اليه نظرات حادة ملتهبة، وكأنّ جرحها الدامى بين أضلاعها لا يزال يتدفق منه الدم، فثار من مكانه هائجاً مذعوراً وحاول أن يطرد هذا الخيال عن نظره فلم يستطع، فمد يده الى ذلك الجرح الموهوم الماثل أمامه يريد أن يعترض سبيل الدم المتدفق منه فغلبه على أمره وازداد فى تدفقه وانبثاقه حتى ملأ أرض الغرفة جميعها وصبغ بلونه الأحمر القانى جميع مافيها من فرش وأثاث وآنية وثياب، فاشتد فزعه وارتياعه ولم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل فوقع مغشياً عليه

وظل على ذلك ساعة حتى انفثأت حرارة دمه فاستفاق من غشيته وجلس الى نفسه يناجيها ويقول

إننى على ثقة من نفسى، لم أفعل إلا ما يجب على كل رجل شريف أن يفعله، فما هذا الخوف الذى يساورنى ! وما هذه الصور المخيفة التى تتراءى لي فى يقظتى وأحلامى ! كان يجب على

أن أضرب لانه مامن ذلك بد ففعلت ، فلم ارتاب فى عملى ! ولم أرتعد ارتعاد المجرمين الآثمين ! ان الرجل لايخاف إلاذنبه ، وأنا لم أذنب إلى أحد ، لأن الرجل الذى قتلته كان يريد أن يقتل أمة بأسرها فأنقذتها بقتله ، بل أنقذت عشرين أمة من أمم المسيح فى أوروبا ، ألا يجوز للانسان أن يقتل الافعى دفعاً لأذاها ، والوحش كسراً لشرته ، واللص اتقاء لضرره ! اننى لم أفعل غير ذلك ، فمالى أرى وجه السماء أحمر قانياً ليله ونهاره ، ومالى أجد مذاق الدم فى كل كأس أشربها من ماء أو خمر ، ومالى لا أستطيع النظر الى يدى خوفاً ورعباً ! إننى لم أقتل أبى ، ولكننى أحييته ، لانه ان كان يحيا اليوم فى قلوب الناس حياة العظمة والمجد وكان تمثاله آلهاً معبوداً يطيف به الشعب ويقبل أركانه ويتبرك بلمسه واستلامه وكان اسمه طغراء الاسماء الشريفة المسجلة فى التاريخ فانما ذلك بفضل الضربة التى ضربته اياها . ولولا ذلك لعاش بقية أيام حياته عيش الادنياء الساقطين ، أو مات موت الخونة المجرمين

وهنا انتفض واصفر وارفض جبينه عرقاً وقال بصوت ضعيف مختنق : نعم ان ذلك كله صحيح لاريب فيه ولكننى قتلت أبى !

ثم لم يلبث أن عادت اليه مخاوفه ووساوسه فرأى الجثة والمصرع والطعنة النجلاء ، والدم المتدفق ، وسمع تلك الاصوات

التى تهتف به فى كل مكان « ياقاتل أبيه ، ياأكبر المجرمين ، ياعار البشرية وشنارها » فجن جنونه ، وثار ثائره ، وعادت له سيرته الاولى

ولم يزل هكذا ليله كله ، يهدأ حيناً ويثور أحياناً ، حتى نشر الفجر رايته البيضاء ، فى آفاق السماء ، فاستروح رائحة الانس وشعر ببرد الراحة فآوى الى مضجعه

كذلك كان شأن قسطنطين دائماً ، وكذلك كانت أكثر لياليه مذ حدث ذلك الحادث العظيم

﴿ الازهار ﴾

دخلت ميلتزا غرفة قسطنطين صباح ليلة من تلك الليالى الطويلة الليلاء وبيدها طاقة من الزهر تريد أن تقدمها اليه فرأته مضطجعاً على كرسيه مستغرقاً فى نومه وآثار الدمع ظاهرة بين أهداب عينيه وفى صفحتى خده فرثت لحاله وجلست تحت قدميه ترقب يقظته رقبى المجوسى طلعة الشمس من مشرقها ، فحمل النسيم إلى رأسه نفحات تلك الازهار فانتعش وتحرك فى مكانه وفتح عينيه فرآها فابتسم وتهلل وقال ملينزا ! قالت نعم ياسيدى نعمتَ صباحاً ونعمتْ جميع أيامك بكورِها وأصائلها ، ثم مدت

يدها اليه بالطاقة وقالت له : قد اقتطفت لك صباح اليوم هذه الأزهار الجميلة التي تحبها أكثر من سواها لتستروحها فتروح عن نفسك برياها همومها وأحزانها ، فتناول الطاقة منها واستنشقها وتنفس تنفسة طويلة ثم نظر اليها نظرة حلوة عذبة وقال لها

أتعلمين ياميلتزا انني أستنشق في هذه الازهار التي تهدينها الى أنفاسك الأريجة العطرة ، وان الذي ينعشني ويحييني ويرفه عني همومي وآلامي في هذه الطاقة انما هو أريجك لا أريج الازهار !

فارتعدت ميلتزا لاول كلمة حب سمعتها من فمه وظل قلبها يخفق خفقاناً شديداً وملك الدهشُ عليها عقلها ولسانها فلم تستطع أن تنطق بحرف واحد وظلت شاخصة اليه ببصرها ، فاستمر في حديثه يقول ، لقد كنت أطلب الموت قبل دخولك وأتمناه تمنياً شديداً حتى رأيتك ورأيت هذا الجمال المتلألئ في عينيك وشممت أنفاسك العطرة المنبعثة من أوراق أزهارك فأحببت الحياة من أجلك ، وأصبحت أتمنى أن أعيش لأراك ، وأقضي بقية أيام حياتي بجانبك ، فشكراً لك ياصديقتي ، فأنت النجمة الوحيدة الباقية في سماء حياتي بعد ما غربت جميع نجومها وكواكبها ، والشعاع المضيء الذي ينبعث الى أعماق سجني المظلم الحالك فيبدد ظلمته وينير جوانبه ويملأ قلبي أملا ورجاء ، والواحة المخصبة الخضراء

التى ألجأ اليها كلما قطعت مرحلة فى صحراء هذه الحياة المحرقة فأنام تحت نخيلها ، وأبترد ببرد مياهها ، قالت ليتنى أستطيع أن أكون عند ظنك بى ياسيدى ، بل ليتنى أستطيع أن أقاسمك هذه الهموم والأحزان التى تعالجها ، أو أحتملها عنك جميعها حتى لا أراك بين يدى إلا باسماً متطلقاً في جميع آنائك وساعاتك ، انى أمتك الوضيعة المسكينة ياسيدى ، وليس لفتاة مثلى أن تسألك عن سبب همومك وأحزانك ، ولكننى أستطيع أن أضرع اليك أن تسريها عن نفسك وتهونها عليك فأنت رجل فاضل شريف وقد قلت لى قبل اليوم إن الرجل الفاضل الشريف يعيش من شرفه وفضيلته فى سعادة لا يهنأ بمثلها الملوك فى قصورهم ، قال ومن أين لك اننى رجل فاضل شريف ؟ قالت لو لم تكن كذلك لما أحببتك ، فابتسم قليلا وقال : إذن أنت تحبيننى ياميلتزا ، قالت نعم ياسيدى أكثر من كل شىء فى العالم ، ولولا كرامة أمك عليك وجلال ذكراها فى قلبك لقلت لك إنها ما كانت تحبك في حياتها أكثر مما أحبك اليوم ، فأطرق قسطنطين لتلك الذكرى المؤلمة ، ومرت بجبينه سحابة سوداء قاتمة فرفع رأسه وقال لها : حسبك ياميلتزا لا تذكرينى بأمى فما أحسبها الآن الا ناقمة على فى قبرها ، تلعننى وتستعدى ربها على ، وتسأل الله صباحها ومساءها أن يعاقبنى

وينتصف لها منى ، واخجلتاه من نفسى يوم ألقاها فى تلك الدار ويجمع الموقف العظيم بينى وبينها ، فارتاعت مليتزا عند سماع هذه الكلمة وذهبت بها الظنون كل مذهب ، وظلت تنظر اليه نظراً غريباً حائراً وقد بدأت تفهم ذلك السر الهائل الذى أعياها أمره زمناً طويلا وتدرك السبب فى حزن قسطنطين هذا الحزن الشديد الذى يقيمه ويقعده ويساور نفسه ويقلقها مذ قتل أبوه حتى اليوم ، وكانه قد ألمّ بما دار فى نفسها وتردد فى خاطرها فظل ناظراً اليها بلهف وشوق ينتظر أول كلمة تنطق بها بعد هذا الصمت الطويل انتظار المتهم أول كلمة ينطق بها قاضيه بعد سماع دفاعه ، حتى رآها تبتسم وتهلل وتقول له : هون عليك الامر ياسيدى ، ولا ترتب فى نفسك ولا فى ضميرك ، فما أنت بمجرم ولا قاتل ، ولكنك رجل شريف ، ولولا أنك كذلك لما أحببتك ، فمد يده اليها فتناول يدها وقال لها أتعدينى ياميلتزا أن تكتمى فى صدرك كل شىء ؟ قالت نعم أعدك وعداً لا أخيس به ، قال : وشىء آخر ياميلتزا ، قالت وما هو ياسيدى ؟ فادناها منه وضمها ضمة خفيفة إلى نفسه وقال لها : أتقسمين لى على الحب حتى الموت ؟ قالت نعم ياسيدي اقسم لك ، قال بم تقسمين ؟ قالت بكل ما تسكن به نفسك ، قال ضعى يدك على هذا الخنجر

وأقسمي به ، قالت أفعل على شرط واحد ، قال وما هو ، قالت أن تُهديني اياه بعد ذلك ، قال وماذا تصنعين به ، قالت أقتل به نفسي يوم يحل بك مكروه . فناولها اياه وهو يقول فى نفسه : ربما حل بى عما قريب ذلك المكروه الذى تتوقعين . فوضعت يدها على الخنجر وأقسمت به أن تحافظ على حبه والاخلاص له حتى الموت . فتهلل قسطنطين فرحاً وسروراً ونزعه من خاصرته وعلقه فى منطقتها ثم ضمها إلى صدره ضمة شديدة وقبلها فى ثغرها قبلة كانت عزاءها الوحيد عن كل مامر بها فى حياتها

﴿ حديث ﴾

جُرح الجندى « أورش » فى احدى المعارك فلزم بيته وتولت ابنته « أنّا » معالجته . وكان يزوره بعض أصدقائه من الجنود فى الفينة بعد الفينه ، فزاره فى أحد الايام الجندى « لازار » وكان لايزال حارساً لقصر القائد برانكومير والخادمَ الامين لارملته بازيليدو ثقتها المؤتمن على جميع أسرارها ودخائلها ، فقال له « أورش » حين رآه : هل من جديد اليومَ يالازار ؟ قال نعم قد فشل جيشنا فى الواقعة الاخيرة كما فشل فى الواقعة الماضية والوقائع التى تقدمتها ولا أعلم متى تنتهى هذه الانكسارات ، فقد تمت عدتها حتى الأمس

عشراً ، ولا أعلم مايأتى به الغد ، أما القتلى والجرحى فهم كثيرون لايحصى لهم عدد ، وما يبتك بالبيت الوحيد الذى تترقرق فيه الدماء والدموع ، ففى كل بيت من بيوت المدينة شاكون ومتألمون

فقال أورش : لاريب أن قسطنطين غير أبيه ، ولقد فقدنا بفقد ذلك الرجل العظيم قائداً كان خير القواد وأبرعهم ، وأوسعهم علما وتجربة ، وأعلمهم بموارد الأمور ومصادرها ، لم يفلت النصر من يده فى جميع معاركه أكثر من مرة أو اثنتين ، حتى مات فى الواقعة الاخيرة وسيفه مصلت فى يده ميتة البطل الشريف ، فمات بموته الظفر والانتصار ، وأدار الزمان وجهه عنا ، ولا يعلم إلا الله متى يقبل بعد ادباره

فقالت له ابنته « أنا » وكانت جالسة تحت قدميه تضمد له جراحه : لقد قلت لى ياأبت قبل اليوم ان قسطنطين قائد عظيم لايشق له غبار ، فما هذا الرأى الذى تراه فيه الآن ؟ قال نعم كان قائداً عظيما فى حياة أبيه وتحت لوائه ، أما اليوم وقد استقل بالرأى وحده وانقطع عنه ذلك الوحى الذى كان يرشده ويهديه ، فقد انتقض عليه أمره ، وأصبح حائراً مضطرباً لايدرى ماذا يفعل ولا كيف يصرّف وقائعه ومواقفه ، فقالت ان جيشنا لم ينكسر قط فى واقعة من تلك الوقائع التى تذكرونها كما تتوهمون ،

لانه لم يتخل عن مركزه ، ولم يسلم شِعباً واحداً من تلك الشعاب التى يحرسها ، أما القتلى والجرحى وكثرتهم فهم فى جيوش أعدائنا أكثر منهم فى جيوشنا أضعافاً مضاعفة ، وحسبنا ذلك فوزاً وانتصاراً

فقال لازار : لقد كانت خطة القائد ميشيل خطة دفاع محض لايحول عنها ولا يتزحزح ، والجبال بين يديه تحميه وتحفظ مواقفه ، أما قسطنطين فقد أخذ نفسه بالهجوم على العدو فى حصونه ومواقعه ، وترك الجبال التى تحميه من ورائه ، فكثر القتلى والجرحى فى جيشنا ، وهى خطة مخاطرة ومغامرة لايركبها إلا القائد اليائس أو المجنون ، ولا أعلم أى الرجلين هو ؟

قال أورش : أحسبه يائساً قانطاً ، فانى أشعر كما يشعر كثير من الناس ان سحنته قد تغيرت منذ موت أبيه تغيراً عظيما ، وأصبح حزيناً منقبضاً لاتفارق الكآبة عينيه وجبينه ، ولم أر فى حياتي ثاكلا حزن على فقيده حزن هذا المسكين على أبيه ، قال لازار : ولقد حدثنى بعض خدم القصر وحراسه أنه يستيقظ من نومه فى بعض لياليه صارخاً متفزعاً يستغيث ويستنجد كأنما هو يندم على جريمة ارتكبها ، أو يخاف شبحاً هائلا مقبلا عليه فقالت « أنا » إنكم تظلمون قائدنا ظلماً عظيما ، فقسطنطين

أفضل القوادوأشرفهم ، وما هو بجان ولا مجنون ، فنظر اليها الازار شزراً وقال بل هو جان أو على وشك ارتكاب جريمة هائلة ، فقد رابنى منه مذ ولى قيادة الجيش عفوه عن الاسرى الذين يقدمون اليه وإنزاله اياهم منزلة الاكرام والاعزاز واهتمامه بشأنهم كأنهم ضيوف وافدون ، لا أعداء محاربون ، كما رابنى منه أكثر من ذلك اعتزاله الناس وانقطاعه عنهم جميعاً حتى عن زوج أبيه التى تحبه حب الام ولدها وفلذة كبدها ، فانه مذ هجر قصرها وعاش فى بيته الجديد الذى يسكنه اليوم لم يزرها مرة واحدة ولا دعاها الى زيارته حتى الساعة

فقالت « أنّا » : أكلُّ أفعال قسطنطين قد أصبحت مريبة عندكم لا تحمل على محمل حسن حتى اكرامه للأسرى المساكين واشفاقه على ذلهم وضعفهم ؟ قال ليس هذا رأيى وحدى ، بل رأى أكثر الجنود ، فقد أصبحوا يعتقدون أن قائدهم يقودهم الى الموت الزؤام عمداً لسر خفى يضمره فى نفسه ، وما أحسبهم قادرين على احتمال هذه الحالة زمناً طويلا ، فاحتدمت « أنّا » غيظاً وقالت : ان قسطنطين أشرف مما تظنون ، وهل ترون محالا أو غريباً أن يحزن المرء على أبيه بعد فقده ؟ ثم التفتت الى أبيها وقالت له بسذاجة ورقة : أقسم لك يا أبت لو أن مكروهاً أصابك من هذا الجرح الذى

فى خذلك لا أذن الله بذلك ولا قدره لحزنت عليك حزناً يصغر بجانبه حزن قسطنطين على أبيه ، فابتسم أبوها وضمها الى صدره وقال لها اننا لانذهب فى أمره يابنية حيث ظننت ، ولا نتهمه بخيانة ولا بمالأة ولكنا نخاف عليه أن يكون قد نفذ اليأس الى قلبه فضعضعه ، وأن تكون نفسه قد حدثته بمسالمة أعدائه ومؤاتاتهم ، فأعد لذلك العدة التى رآها ، واليأس هو الخديعة الكبرى التى يدسها الشيطان دائما فى نفوس الأمم الضعيفة التي يريد قتلها والقضاء عليها

وهنا دخل بعض الجنود لعيادة أورش ، وتلاهم آخرون من بعدهم ، واشتركوا جميعاً فى الحديث ، وأنشأ لازار ينفث سموم سعايته ووشايته فى صدورهم ، حتى أجمعوا رأيهم على أن قسطنطين يخون أمته ويمالئ أعداءها عليها ، وان الرأى الصواب أن يرفعوا أمره الى الملك ليأمر بعزله عن القيادة ويعهد بها الى غيره ، ثم انصرفوا

﴿ الدسيسة ﴾

بينما كان قسطنطين جالساً صبيحة يوم فى غرفته اذ دخل عليه حارس بابه يستأذنه لبازيليد أرملة أبيه ، فانقبض صدره واشمأزت نفسه ، لانه لم يكن رآها ولا أذن لها بمقابلته مذ مات

أبوه حتى اليوم ، فاذن لها بعد لأى فدخلت عليه وحيته وجلست بجانبه وأنشأت تعاتبه فى انقباضه عنها ووحشته منها وسوء رأيه فيها ، وتقسم له بحرمة ذلك الدفين الكريم الذى كان يحبه ويحبها أنها لا تضمر له فى نفسها موجدة ولا حقداً ، ولا تحمل له بين جنبيها غير الحب الخالص والود المتين ، ثم قالت له : إننى برغم آلامى وأحزانى التى أعالجها منذ نزلت بى تلك النازلة العظمى حتى اليوم لم أر بداً من أن آتى اليك فى هذه الساعة الشديدة عليك راجية أن أعينك عليها وأهون عليك أمرها ، وربما وجدت السبيل إلى خلاصك منها ، فالتفت اليها مندهشاً وقال : أى ساعة تريدين ؟ وما هى الشدة التى أنا فيها ؟ قالت كانك لا تعلم أن الخطر الذى يحيط بك عظيم جداً لا قبل لك باحتماله ، وأن جنودك قد أصبحوا ينقمون عليك نقمة عظمى ، ويبغضونك بغضاً لا حد له ، ولا تحدثهم نفوسهم بشىء سوى تلمس الطريق إلى الوصول اليك ليقتلوك . فاصفر وجهه وقال : وماذا ينقمون منى ؟ قالت ينقمون منك مخاطرتك بهم فى تلك المعارك الهائلة التى تكاد تفنيهم وتقضى عليهم ، وفشلك فى جميع الوقائع التى قمت بها منذ وليت قيادة الجيش حتى اليوم ، وقد امتد بهم الحقد عليك الى سوء الظن بك ، فاصبحوا يعتقدون انك خائن ممالىء للعدو ،

وانك ماسلكت هـذه الخطة المعوجة فى حروبك إلا لتمكن الاعـداء من اجتياز الحدود واقتحام البلاد ، فانتفض انتفاضة شديدة واربد وجهه ونزت فى رأسه سورة الغضب وقال : من ذا الذى يتهمنى بالخيانة ؟ قالت جنودك ورجالك ، قال : انهم كاذبون فيما يقولون مافى ذلك ريب إن كنت صادقة فيما تقولين، قالت : ما كذبت عليك قبل اليوم ، ولا غششتك فى النصيحة ، ولقد زادهم حقداً عليك وموجدة أن العدو قد اجتاز الجبال ليلة أمس ، وربما لا يمر يومان أو ثلاثة حتى يكون قدوصل الى أبواب العاصمة ، وسيصل بريدك الساعـة فينقل اليك هـذا الخبر المحزن الاليم ، فصرخ صرخة عظمى دوت بها أرجاء الغرفة ووثب من مكانه ثائراً وهو يقول : آه يا وطنى العزيز ! وابتـدر الباب يريد الخروج منـه فأمسكت بيده واجتذبته اليها وقالت له مهلا أين تريد ؟ قال أدعو جنودى وأجمع من تفرق منهـم فى الثكنات والقلاع وأذهب بهـم الى الحدود للدفاع عن القلعة الـكبرى فالوطن فى خطر عظيم ، قالت لا تفعل فقـد خرج الامر من يدك ، واعـلم أن جميع جنودك المقيمين فى ثكنات المدينـة وأرباضها قد أصبحوا متمردين عليك لا يطيعونك ولا يأتمرون بأمرك ، فـلم يحفل بكلامها وأسرع إلى النافذة واشرف

منها على الساحة العامة وظل يصيح : أيها الجنود ! النفير النفير، الاهبة الاهبة ، فما سمع الجند صوته ورأوا وجهه حتي هاجوا واضطربوا وأخذوا يصيحون داخل القصر وخارجه : ليسقط الخائن ! ليسقط المجرم ! فظل يشير اليهم بيده يحاول إسكاتهم واسترعاء اسماعهم وهم مستمرون فى ضجيجهم وصياحهم لا يهدأون ولا يفترون ، فعاد إلى مكانه يائساً متضعضعاً ليس وراء مابه من الهم غاية

فدنت بازيليد منه وقالت له : قد علمت الآن أننى لم أكذبك القول ولم أخدعك ، وأننى لم أقدم اليك مقدمى هذا فى هذه الساعة العصيبة إلا لتخليصك وإنقاذك وإنقاذ الوطن وأبنائه ، فرفع نظره اليها مندهشاً وقال أنت ؟ قال نعم أنا ، فى الوقت الذى لا أجد فيه بجانبك من يأخذ بيدك أو يعينك على أمرك ، فاصغَ لما أقول : إن الملك سيزور قصرك الساعة ليستنجد بك على دفع هذا الخطر الداهم ، وإن شئت فقل ليستعين بك على الاحتفاظ بتاجه الذى يضن به ضنه بحياته ولا يحفل بشىء سواه ، وقد علم الجند ساعة حضوره فهم ينتظرونه فى هذه الساحة حتى اذا طلع عليه فى موكبه هرعوا إليه ضاجين صارخين يتقدمهم جرحاهم وزمناهم ورموك بين يديه بتلك التهمة العظيمة التى يرددونها

الآن ، ويصيحون بهـا فى كل مكان ، فاما أن يصدقهم فقـد هلـكت هلاكا لانجاة لك من بعده ، أو يرتاب بهـم فلا يرى له بداً من أن يسلك سبيل الحـكمة فى مداراتهم ومدافعتهم ، فيأمر بعزلك عن القيادة والعهد بها الى غيرك ارضاء لهم ، وتسكينا لثائرتهم ، فان فعل فقـد انتشرت لك فى الامة قالةُ سوء لا تستطيع أن تمحو عارها عنك أبد الدهر

فظل يرتعد ويضطرب ويردد بينه وبين نفسه : رب ماذا أصنع فالخطب أعظم مما احتمل ، فاقتربت منـه ووضعت يدها على كتفه وحنت عليه حنو الام على رضيعها وقالت له بتلك النغمة العذبة الجميلة التى قتلت بها أباه من قبل : نعم يابنى إن الخطب أعظم مما تحتمـل ولم يبق بين يديك الا أن تسـلك تلك الطريق التى شرع أبوك فى سلوكها قبل موته ثم عجز عن الاستمرار فيها الى نهايتها ، فخسرها وخسر حياته على أثرها . فنظر اليها مندهشاً وقال ماذا تريدين ؟ فصمتت لحظة ثم استنجدت قوتهـا وشجاعتهـا وقالت له : أتدرى ياقسطنطين لم ذهب أبوك الى شعب تراجان وجلس تحت القوس الرومانى في الليـلة التى مات فيهـا ؟ فرجعت الى ذهنه تلك الذكرى المؤلمة وقد بدأ يفهـم ماترمى اليـه فى حديثهـا فراعه الامر وهاله الا انه تماسك وتجلد وظل ناظراً اليهـا نظرات

جامدة ساكنة أشبه بنظرات الموتى فى النزع الاخير فاستمرت فى حديثها تقول: انه ذهب الى ذلك المكان ليستقبل الجيش التركى عند قدومه ويأذن له باجتياز الحدود والوصول الى فيدين ، ولو فعل لنجي الوطن من خطر عظيم ولأطفأ نار هذه الحرب التى تلتهم البلاد التهاماً يكاد يقضى عليها ، ولكان اليوم ملكاً جالساً على عرش البلقان ، لا تمثالاً أجوف منتصباً فى الميدان ، ولكنه عجز فى الساعة الاخيرة عن الاحتفاظ بقوته وعزيمته فما رأى سواد الجيش التركى مقبلا نحوه حتى نسى عهوده ومواثيقه وابتدر الراية الاولى فأشعل نارها وأيقظ الجيش من رقدته واستثاره للاهبة والدفاع ، وما كفاه ذلك حتى جرد سيفه للقتال وخاض المعركة بنفسه وظل يقاتل حتى هلك

فعجب قسطنطين لتلك الجرأة الغريبة التى لا يشتمل على مثلها صدر امرأة فى العالم ولا رجل ، ثم قال لها بهدوء وسكون لا يعلم إلا الله ما يكمن وراءهما : وبعد فماذا تريدين ؟ فأطمعها فيه سكونه وهدوؤه ، وخيل اليها أنه قد استخذى للامر واستسلم فقالت : إن العهد السلطانى لا يبيك بملك البلقان لا يزال باقياً بيدى حتى الساعة وهو مذيل بتوقيع السلطان ومختوم بختم آل « برانكوميز » فلسنا فى حاجة الى تغيير حرف منه أو كتابة عهد

جديد ، وقد قابلت رسول القائد التركى ليلة أمس واتفقت معه على كل شيء ، فكن أعقل من أبيك وأبعد منه نظراً ، واعلم أن الترك لابد مقتحمو هذه البلاد وآخذوها أبطأوا أم أسرعوا ، فقد اجتازوا عقبة الجبال اليوم ، وسيجتازون بقية العقبات غداً أو بعد غد ما من ذلك بد ، فخير لك أن تهادنهم وتسالمهم وتتخذ عندهم يداً تنفعك لديهم غداً وأن تفتح لهم بيدك ما استغلق عليهم من أبواب البلاد بدلا من أن يغلبوك عليها لتحتفظ لنفسك بذلك العرش الذى هو عرشك وعرش أبيك من قبلك لولا طمع ذلك المختلس وفضوله

ان الجنود يضجون ويصخبون ويوشك الملك أن يحضر فيرفعوا إليه أمرك ويهتفوا بين يديه بسقوطك وخيانتك فيأمر بالقبض عليك وسجنك . فاغضب لنفسك وافعل ما أشرت به عليك لتستطيع أن تأمر أنت بالقبض عليه وسجنه بعد بضع ساعات ويدين لك البلقان من البسفور إلى الادرياتيك

أما أنا فانى لا أطلب جزاء عندك على نصحى لك واخلاصى اليك سوى أن تمنحنى لديك منزلة الام الحنون وتأذن لى أن اجلس على ادنى درجة من درجات عرشك . اخدمك وامدك برأيى ومشورتى ، واستظل بظلال مجدك وشرفك حتى الموت ،

ثم أخرجت من حقيبتها العهد السلطانى وأرته اياه فأخذ يقرؤه وهو فى يدها حتى أتمه ، فقالت له : قم الساعة وسافر الى الحدود وقُد جيشك بنفسك وتقهقر به كأنك تفعل ذلك مضطراً ، وأنقذ نفسك ووطنك من هذا الخطر العظيم

هاهى طبول الملك تقترب منا شيئاً فشيئاً واعلم ان قلم القدرة معلق الآن بين أصبعى الله ليكتب به فى صفحات الغيب أحد الحكمين ، إمالك بالصعود الى العرش ، أو عليك بالهبوط الى أعماق السجون ، فأحسن الاختيار لنفسك ولا تكن عدوها الاحمق المأفون

فرفع رأسه ونظر اليها نظرة نارية ملتهبة لو رسمتها ريشة المصور الماهر لأحرقت القرطاس الذى رسمت فيه ، ثم قال لها بهدوء وسكون : قد قلت لى ياسيدتى منذ هنيهة إن أبى قد ذهب الى شعب تراجان ووقف تحت القوس الرومانى ليستقبل الجيش التركى عند قدومه ويأذن له بالمرور فخانه عزمه ونسى ميثاقه فلم يفعل ، وأنا أقول لك : إنك مخطئة فى سوء ظنك به ، فانه لم يزل متمسكا برأيه فى تلك الليلة محافظاً على عهده حتى حالت الحوائل بينه وبين الوفاء ، قالت وما الذى طرأ عليه ؟ قال طرأ عليه الموت فحال بينه وبين مايريد ، قالت وهل تعلم كيف

مات ؟ قال نعم أنا أعلم الناس بذلك ، لأنه لم يكن حاضراً معه فى تلك الساعة وفى ذلك الموقف، سواى ، فارتعدت ونظرت اليه مندهشة وقالت له : ألم يمت قتيلا بيد أعدائه ؟ قال لا ، بل بيد أصدق أصدقائه ، بل بيد أقرب الأقرباء اليه وأمسهم به رحماً ، فطاش عقلها وجن جنونها وصاحت : ماذا تريد أن تقول ؟ قال أريد أن أقول : إننى أنا الذى قتلته بيدى جزاءً له على خيانة لوطنه ، قالت أنت ياولده وفلذة كبده ؟ قال : نعم وأنت التى وضعت في يمينى ذلك السيف الذى قتلته به ، لأنك أفسدت نفسه وقتلت شعوره وأغريته بخيانة وطنه وسلبته جوهرة الشرف الثمينة التى كانت تضىء مابين جنبيه ، وكانت أكرم الجواهر وأغلاها ، فلم أر بداً من أن أقتله لاستنقذ الوطن من يده ، فتألمى ماشئت أيتها المرأة الشريرة وتعذبى ، وتجرعى كؤوس الحسرة والندم على ما أفلتَ من يدك من أمانيك وآمالك ، وحسبى انتقاماً منك على جريمتك التى أجرمتها الىَّ والى أبي والى الطبيعة أن تعلمى أننى أنا الذى خيبت آمالك ، وهدمت بيدي ذلك الصرح العظيم الذى أنفقتِ فى تشييده أيام حياتك

نعم أنا الذى قتلته بيدى واقترفت أعظم جريمة يقترفها إنسان فى العالم ، ولولاك لما أقدمت على ذلك ، ولا خطر ببالى

أن إنساناً فى الوجود يقدم عليه ، ولو كان فى استطاعتى أن أكشف أمرك وأهتك الستر عن جريمتك لفعلت ، ولكننى لا أستطيع أن أفعل إشفاقا على سمعة ذلك الرجل المسكين الذى قضى عليه سوء حظه أن يكون شريكا لك فى حياتك وفى جرائمك ، فعيشى معذبة مثلى فريسة لآلامك وأحزانك ، واستنفدى ماء شؤونك حزناً على العرش الذى فاتك ، والزوج الذى رحل عنك ، واسهرى لياليك الطوال خائفة مرتعبة من شبح الجريمة التى اجترمتها ، وخيال الدماء التى سفكتها ، وليطرْ قلبك خوفا وهلعاً كلما ذكرتِ أنك قد وضعت فى يد الولد سيفاً ليقتل به الوالد ، فمات الوالد قتيلا ، وعاش الولد معذباً ، ولتطل أيام حياتك على ظهر الارض لتطول آلامك وأحزانك ، حتى اذا نزل بك الموت نزل بهيكل يابس من العظم ، قد أحرقته اللوعات ، وأضنته الحسرات ، وافترسته الهموم والاحزان

وهنا سُمعت ضجة عظيمة فى الساحة وهاتفون يهتفون الملك ! الملك ! فاكتأب قسطنطين وتقبّض وجهه ، وتهللت بازيليد وتطلقت وطوت وثيقة العهد برفق ووضعتها فى جيبها ، ثم قالت له : نعم انى سأعيش يا قسطنطين حزينة باكية كما قلت ما من ذلك بد ، ولكننى لا آذن لك أن تعيش يوماً واحداً بعد اليوم على ظهر

الارض ، حتى لاترى بعينيك مصائبى وآلامى ، وتشمت بهمومى وأحزانى ، فقد دسست لك الدسيسة فى الجيش حتى ثار عليك ووَضع فى عنقك ذلك الغـل الثقيل ، غلّ الخيانة الذى لاخلاص لك منه ، وسترى الآن بقية ثأرى وانتقامى

وهنادخل الملك والجنود من حوله يتقدمهم لازار وهو يصيح وهم يصيحون من خلفه : إنه خائن يامولاى ، انه قد مالأ الاعداء علينا ، انه أفنى رجالنا ورمل نساءنا ويتّم أطفالنا فأعْدنا عليـه ، وانتقِم لنا منه وللوطن ، والملك يقول : دعونى وشأنى ، لاأصدق شيئاً ممـا تقولون ، ثم التفت الى قسطنطين وقال له أيها البطل العظيم : ان الوطن فى خطر وقد جئت أستنجد بك على دفع هذه النازلة التى نزلت بنا ، وسأكون فى المعركة المقبلة جندياً من جنودك ، أقاتل بجانبك ، وأبارك خطواتك ، ولا تبتئس بما يقول هؤلاء القوم ، فانهـم لايعلمون من أمرك شيئاً ، إنا لا نعرف اليوم تحت سماء البلقان بطلا غيرك ، وما كنا نعرف قبل اليوم بطلا غير أبيك ، ولا نضمر لـكما فى قلوبنا غير الاجلال والاعظام ، لمكانـكما من خدمة الوطن وحمايته والذود عنـه ، أما الحظ الذى فارقك فى تلك الوقائع الماضية فأبشر أن عهد فراقه لايطول ، وأنه سيعود اليك بعد أيام قلائل بالوجه الطلق الجميل ، وستمحو

بانتصاراتك المقبلة جميع آثار تلك الهزائم السالفة ، ثم التفت الى الجنود وقال لهم : يا أبطال البلقان وحماته ، لاتخذلوا قائدكم ، ولا تخفروا ذمته ، فهو سيدكم اليوم ، وابن سيدكم بالأمس ، واعلموا أنى لاأصغى الى تهمة لا أعرف لها برهاناً ولا دليلا

فصمت القوم صمتاً عميقاً ، وساد بينهم السكوت هنيهة ، وقد بدأت مراجل غيظهم وموجدتهم تفتر وتتقاصر ، وهنا انفرج الجمع واذا بيازيليد تتقدم رويداً رويداً كما ينساب من مكمنه الأرقم نحو موقف الملك حتى مثلت بين يديه ، وقالت له بصوت عال سمعه جميع الجنود ، أنا التى أتهمه يامولاى ، وأنا التى أقدم لك على تهمته الدليل والبرهان ، فدهش الملك عند رؤيتها وقال الاميرة؟ قالت نعم يامولاى أرملة القائد ميشيل برانكومير ، إنى أتهم هذا الرجل بخيانة قومه وممالأة أعدائهم عليهم ، وأقول لك انه كتب بينه وبينهم عهداً على أن يفتح لهم أبواب البلاد فى الساعة التى يريدونها فيمنحوه فى مقابل ذلك عرش البلقان وتاجه ، وقد دعانى الساعة ليشركنى معه فى هذه الجريمة التى يريد اقترافها ، ويسألنى أن أساعده عليها ، فلم أر بداً من أن أرفع أمره اليك ، أما البرهان الذى تريده فهاهو ذا ، ومدت يدها اليه بتلك الوثيقة ، فتناولها الملك ذاهلا وأخذ يقرؤها وهو يرتعد ويرتجف ويقول فى نفسه ماذا أرى ؟

إخلاء الحدود ! اجتياز الجبال ! العرش ! التاج ! ختم برانكومير ! يا للهول ويا للفظاعة ! ثم نظر الى قسطنطين فاذا هو تمثال جامد لا يتحرك ولا يطرف ، فتقدم نحوه خطوة وقال ماهى كلمتك ياقسطنطين ؟ فصمت ولم يقل شيئاً ، فالتفتت اليه بازيليدو قالت له : أتستطع أن تنكر شيئاً مما أقول ؟ فأوثقته وثاقاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، الا أنه رفع رأسه ونظر اليها نظرة غريبة مبهمة لم يعلم غيرها ماذا يريد بها ، ثم عاد الى صمته واطراقه ، فهاج الجند وأخذوا يصيحون : القتل القتل ، الانتقام الانتقام ، وظل الملك يشير اليهم بيده يدعوهم الى السكون والهدوء حتى هدأوا ، فتقدم نحو قسطنطين خطوة ثانية ووضع يده على كتفه وسأله مرة أخرى ، ماذا تقول ياقسطنطين ؟ دافع عن نفسك ، فان سكوتك حجة عليك ، لا تصمت ولا تطرق ، وقل كلمة واحدة فانى أصدقك فى كل ماتقول ، فاستمر فى صمته وإطراقه وهو يقول في نفسه : كيف أدافع عن نفسى ، وأى سبيل أسلكه الى ذلك ، والسبل جميعها وعرة شائكة لا تقوى قدمى على اجتيازها ، انى لا أستطيع أن أبرئ نفسى الا اذا اتهمت أبى وقد قتلته مرة ، فلا أقتله مرة أخرى ، ثم ابتسم ابتسامة الممتعض وقال فى نفسه قد كنت أطلب الموت بكل سبيل حتى جاءنى يسعى الىّ بقدميه ،

فلمَ أخشاه وأَرتاع منه ؟ فليكن ما أراد الله أن يكون ، ثم رفع رأسه الى الملك وقال له ليس عندى ما أقوله لك ياسيدى فاصنع بى ما تشاء

فصاح الجمهور : ليسقط الخائن ! ليقتل المجرم ، وهجموا عليه ليفتكوا به ، فاعترض الملك طريقهم وقال لهم : دعوه وشأنه فان أمره موكول الى مجلس القضاء ، أما نحن فليس بين أيدينا الا أن نفكر الآن فى الطريق الى الدفاع عن وطننا وحمايته ، ودفعِ هذه النازلة الملمة بنا ، فسيروا بنا أيها الجنود الابطال الى ساحة الحرب وأنا قائدكم

ثم التفت الى الحراس وأمرهم بالقبض على قسطنطين والذهاب به الى السجن حتى يفصل القضاء فى أمره

فهتف به قسطنطين وقال : لى كلمة واحدة أحب أن أقولها لك يامولاى ، فذعرت بازيليد وارتعد لازار واشرأبّ القوم بأعناقهم والتفت اليه الملك وقال : ماذا تريد أن تقول ؟ قال : أنت تعلم يامولاى أننى جندى قديم ولدت فى ساحة الحرب وقضيت حياتى فى ميادينها ولا أمنية لى فى الحياة غير أن أموت فيها ، وأنت الآن قائد الجيش وصاحب الامر والنهى فيه ، فائذن لى أن أسير فى ركابك جندياً صغيراً ، لا قائداً ولا أميراً ، لأقاتل معكم حيث تقاتلون ، ولك علىّ عهد الله وميثاقه ألا أعود من تلك المعركة

الا منتصرا أو محمولا على الاعواد الى حيث آوى الى منزلى الاخير الذى لارجعة لى منه على ا كفر بذلك عن زلتى التى زللتها وأنتقم من نفسى بنفسى ، فعجب الملك لامره وظل يردد نظره فى وجهه هنيهة وكأنّ نفسه كانت تحدثه ببراءته وطهارته الاّ أنه لم يلبث الا قليلا حتى زوى وجهه عنه وقال له: لاأستطيع أن آذن لك بشئ فالموت فى ساحة الحرب منزلة لاينالها الا الامناء المخلصون

فتنفس الجمع الصعداء وخرج الملك تحيط به جنوده وحراسه وهو يردد بينه وبين نفسه : وارحمتاه لك أيها الفتى المسكين !

فتقدم الحراس الى قسطنطين فقيدوه وجاءت بازيايد فوقفت بجانبه وقالت له بصوت خافت لايسمعه سواه: نعم إننى سأقضى مابقى من أيام حياتى حزينة باكية متألمة كما قلتَ ولكننى قد انتقمت لنفسى وحسبى ذلك وكفى، فلم يرفع نظره اليها احتقاراً وازدراء بل رفع رأسه إلى السماء وقال : قد كنت أسألك الموت يارب فى كل حين وأضرع اليك فيه ليلى ونهارى فبعثت به الىّ ولكن فى أفظع صوره وأهولها ، فامدد الىّ يد معونتك ورحمتك لأستطيع أن أشرب الكاس حتى ثمالتها ، وخذ بيدى فى شدتى فقد تخلى الناس جميعاً عنى ، وأصبحت أحتمل ما أحتمل من الآلام وحدى ، وليس بجانبى من يخفف عنى لوعتى ، أو يمسح بيده دمعة من دموعى ،

فخرجت ميلتزا من وراء ستار كانت مختبئة فى طيلته وتقدمت نحوه وجثت تحت قدميه الموثقتين وقالت له : لست وحدك يامولاي فهانذا ، فتهلل وجهه بعد عبوسه وقال : أحمدك اللهم حمداً كثيراً ، ثم خرج مع الجنود يرسف فى قيوده حتى وصلوا به الى السجن فأودعوه اياه وأوصدوا الباب من دونه ، فربضت ميلتزا على عتبة الباب ربوض الكلب الأمين على قبر سيده الدفين ، وأنشأت تندبه وتبكيه بكاء تهتز له جوانب الارض وتتداعى له أركان السماء

﴿ التمثال ﴾

انتصر الملك فى الواقعة التي حضرها وقاد فيها الجيوش بنفسه انتصاراً عظيما كان الفضل الأكبر فيه لتلك الروح الدينية التى كان يبثها فى نفوس جنده أثناء المعركة ، فقد كان يمشى بين الصفوف بطيلسانه الاسود والصليب فى يده يهتف باسم المسيح والمسيحية وينادى : دافعوا يا أبناء يسوع عن دينكم وكنيستكم ، واعلموا أنكم ان غُلبتم اليوم على أمركم فلن تقوم للصليب قائمة أبد الدهر ، وهم يستبسلون ويستقتلون ، ويصبرون للموت صبر الكرام ، حتى برقت لهم بارقة النصر فاطبقوا على جيوش العدو من كل

جانب فتقهقرت أمامهم الى ماوراء الحدود وتخلت عن جميع المعابر والجبال التى اجتازتها بالامس ، فاحتفل الشعب بهذا النصر احتفالا عظيما دام عدة أيام ، ولم يكن للناس حديث فيه سوى حديث قسطنطين وجريمته التى اجترمها والجزاء الذى سيلقاه فى سبيلها ، وكلهم يتمنى بجدع أنفه أن يشاهد مصرعه ، ويرى دماءه تتدفق من بين لحييه

ولم يزل هذا شأنهم حتى دنا اليوم الذى يجتمع فيه مجلس القضاء للنظر فى تلك القضية ، فذهب الملك ليلة المحاكمة الى السجين فى سجنه وخلا به ساعة يسأله عن جريمته وشركائه فيها وأعوانه عليها ، وحاوله فى ذلك محاولة كثيرة فلم ينطق بشىء ، ولا دافع عن نفسه بحرف واحد ، حتى عىّ الملك بأمره فأمر باخراجه من السجن الى الساحة العامة المقام فيها تمثال أبيه وأمر أن يشد باغلاله إلى قاعدة التمثال نكاية به وتمثيلا ، ثم قال له انظر أيها الخائن ماذا بنى أبوك لنفسه من المجد ، وماذا صنعت يدك بذلك البناء الذى ابتناه ، وتركه وانصرف

فلما انفرد بنفسه أطرق ساعة يفكر فى شأنه وفى مصيره الذى صار اليه ، ثم رفع رأسه الى التمثال ، وكان الليل قد هدأ وسكن ونامت كل عين فيه حتى عيون العسس والحراس فأنشأ يناجيه ويقول :

هنيئاً لك أيها الرجل مجدُك وعظمتك وتمثالك الشامخ الرفيع الذاهب بعلوه فى آفاق السماء.

هنيئاً لك الصيتُ البعيد والشهرة الذائعة والشرف الخالد المسجل لك فى صفحات التاريخ ، وأن الناس لايمرون بتمثالك حتى يجثوا تحت قاعدته جثيهم تحت قدمى الاله المعبود

أترى بعد ذلك أنك مظلوم أو مغبون أو أن الضربة التى أصابتك من يدى قد حرمتك شيئاً فى هذه الحياة تندبه وتأسف عليه ؟

لقد كنت فى الساعات الاخيرة من ايام حياتك، ولم يكن بينك وبين الانحدار الى قبرك الا بضع خطوات قصار ، فكل ما كان منى لك أنى أنقذتك من تلك الميتة الدنيئة السافلة التى كنت تريدها لنفسك، وقدمت اليك بدلا منها ميتة شريفة مقدسة ترمقها العيون وتتقطع من دونها الاعناق ، وألبستك تاجاً أشرف من ذلك التاج الذى كنت تطلبه وتسعى اليه ، وأجلستك على عرش أرفع من جميع عروش الارض ، وهو عرش التاريخ .

لاتستبق فى نفسك شيئاً من الضغن علىّ ، ولا تضمر لى فى قلبك وأنت فى عالم الحقيقة المجردة الذى لايخالطه كذب ولا رياء غيرَ ما يجب على المريض المبلِ أن يضمره لطبيبه الذى شفاه

من دائه ، وأنقذه من شقائه ، فان كان لابد لك أن ترى انى قد أجرمت اليك ووترتك ، فهاءنذا اكفر عن جريمتى باعظم ما كفر به مجرم عن جريمته

أنظر يا أبت ماذا صنعت فعلتك التي فعلت بولدك ، هاهو الغل يحيط بعنقه حتى يكاد يخنقه ، وها هى القيود تعض قدميه وتدميهما ، وهاهو السيف مجرد فوق هامته لاتطلع الشمس من مشرقها حتي يسقط عليها فيفصلها عن جثتها ، وهاهم الناس جميعاً رجالا ونساء كباراً وصغاراً يلعنونه بألسنتهم وقلوبهم فى كل مكان ، ويضمرون له من الحقد والبغضاء مالو امتدّ إلى جسمه لاحرقه وأحاله رماداً بارداً

أنت المجرم وأنا المعاقَب ، أنت الخائن وأنا المأخوذ بخيانتك ، أنت المتمتع بنعمة الشرف العظيم الذى لاتستحقه ، وأنا المتسربل بسربال الاهانة الدائمة التى لا أستحقها ، لقد أخطأ القدر فى أمرنا مرتين ، فرفعك من حيث تستحق الوضع ، ووضعنى من حيث أستحق الرفع ، ولوأنه أنصف فى حكمه بيننا لاخذ كلٌّ منا مكان صاحبه ، فاصبح التمثال لى ، وأصبح السجن لك

هنيئاً لك مجدُك وشرفك وصيتك وسمعتك ، وما أهنئك تهنئة الهازىء الساخر ، بل تهنئة الفارح المغتبط ، لانك أبى ،

ورئيس أسرتى ، وسيد قومى ، وحبيب الىَّ جداً أن يعيش أبى عظيما فى حياته وبعد مماته

إن آلامى يا أبت عظيمة جداً لاتستطيع أن تحتملها نفس بشرية فى العالم ، ولكن يهونها على أننى أموت من أجلك ، وفى سبيل مجدك وشرفك ، وأننى لم أخرج من الدنيا حتى رأيت تمثالك العظيم مشرفاً من علياء سمائه على جبال البلقان وهضابها كما تشرف الشمس من أبراجها على ماتحتها

ما أنا بنادم على ما كان ، ولا خائف مما يكون ، فليأت الموت إلىَّ فى الساعة التى يريدها ، فقد قمت بواجبي لك ولبلادى ، وحسبى ذلك وكفى

كان لابد لى أن أقتلك ففعلت ، ولكننى قتلتك فيجب أن أُقتل بك

كلانا أجرم وكلانا لقى جزاء إجرامه

أجرمتَ الى الوطن فانتقمتُ له منك ، وأجرمتُ الى الطبيعة فمن العدل أن تنتقم لنفسها منى ، فما ظلم أحد منا صاحبه ولا اعتدى عليه

إرفع رأسك أيها الرجل تيهاً وعجباً ، وزاحم بمنكبيك أجرام السماء وكواكبها ، فقد غسل ابنك بدمه جرمك وعارك ، فان لم

تكن شريفاً بنفسك ، فحسبك شرفاً أنك والد الولد الشريف

ولم يزل فى مناجاته هذه حتى مضت هدأة من الليل فالتف بردائه ووضع رأسه على قاعدة التمثال وأسلم نفسه الى نوم طويل

﴿ النهاية ﴾

ازدحم الناس يوم المحاكمة فى الساحة الكبرى ازدحاماً عظيما ينتظرون عودة الملك من مجلس القضاء ليعلن حكمه أمام المتهم والمتهم هادىء ساكن تحت قاعدة التمثال لاينتظر شيئاً ، لانه يعلم أن الموت جزاؤه الحتم وقد وطن نفسه عليه فلم يعد يحفل به

وإنهم لكذلك إذ أقبل الملك تحيط به حاشيته فاشرأبت اليه الأعناق لسماع كلمته ، ولم يزل سائراً بين الصفوف حتى وقف أمام المتهم فنظر اليه نظرة طويلة ثم صاح بأعلى صوته : ياقسطنطين برانكومير ! ان الجريمة التي اقترفتها عظيمة جداً لايفى بها قتلك وسفك دمك ، لذلك رأى مجلس القضاء أن يحكم عليك بالحياة بدلا من الموت ... فقاطعه الجماهير ، الموت ! الموت ! لابد من قتله ! لايمكن أن يعيش ! فأشار اليهم بالهدوء والسكون حتى يسمعوا بقية كلامه ، فهدءوا فاستمر يقول : وأن تظل طول

أيام حياتك مقروناً بأغلالك هذه الى قاعدة تمثال أبيك ليتردد وجهه في وجهك ليلك ونهارك فتموت في مكانك حياء منه وخجلا ، وأن يؤذَن لكل مارٍّ بك من علية الناس وغوغائهم أن يبصق على وجهك ويصفعك على قذالك وينال منك ما يشاء الا أن يسلبك حياتك

فصاح الجماهير : يعيش الملك ! يحي العدل ! يسقط الخائن! وظلوا يرددون هذه الكلمات وأمثالها وقتاً طويلا

هنا ذرفت عينا ذلك الرجل العظيم الذى لم يبك في يوم من أيام حياته اضربة سيف ، أو طعنة رمح ، أو رشقة سهم ، وعلا صوت نحيبه ونشيجه كما يفعل النساء الضعيفات في مواقف حزنهن وثُكلهن ، وما كان مثله من يبكى أو يذرف دمعة واحدة من دموعه لو أن الذى كُتب له في صحيفة الغيب من الشقاء كان الوقوفَ بين السيف والنطع أو السقوطَ بين آلات العذاب تنال من جسمه وأطرفه ماتشاء ، ولكنه الشرف ، شديدٌ جداً على صاحبه أن تنزل به نازلةُ مذلةٍ ، أو يتصل به ظفر جارح من أظفار الهوان ، فاذا شعر بشيء من ذلك هاله الامر وراعه ، وخارت عزيمته ووهنت قوته ، فبكى بكاء الضعفاء ، وأعولَ إعوال النساء ، ولقد رضى قسطنطين من حظه من الحياة بالموت فراراً

من العار الذى لحقه ، وهرباً من نظرات الناظرين اليه ، وموجدة الواجدين عليه ، أمّا وقد علم أنه سيعيش والعارَ معاً رفيقين متلازمين ، لا يفترقان ولا ينفصلان ، فلم يبق له بد من الجزع ، ولم يبق بين يديه سبيل غير البكاء ، فبكى ما شاء الله أن يفعل ، وأخذ يردد بينه وبين نفسه : ياللبؤس ويا للشقاء ، لقد استحال علىّ كل شىء حتى الموت ، ثم رفع طرفه الى السماء وقال بصوت خافت متقطع : رحمتك اللهم وإحسانك فقد أصبحت عاجزاً ضعيفاً لا أملك من شؤون نفسى شيئاً ، فامدد الىّ يد عنايتك ولطفك لأستطيع أن أتمم واجبى الى النهاية

وهنا وقف لازار فوق هضبة مرتفعة ، وكان لا يزال رأس الفتنة وشعلتها ، وأخذ يصرخ بصوت عال قائلا : إن رأى مولانا الملك أن يأذن لنا بتنفيذ أمره الساعة فقد أوشكت صدورنا أن تنفجر ! فصاح الجمهور من ورائه صيحته ، ودعوا بمثل دعوته ، فاصفر وجه الملك وارتجفت أطرافه ارتجافاً خفيفاً ، ثم قال بصوت خافت متهافت : لكم ما تشاءون ، وتحول من مكانه يريد الانصراف

وهنا برزت ميلتزا من بين الجماهير واندفعت نحو قسطنطين تسبق المندفعين اليه ، وهى تقول : فليبق لك أيها المسكين على الاقل قلب واحد يرحمك ويعطف عليك ، وضمته الى صدرها

كأنما تريد أن تقيه بنفسها ، فسمع الملك صوتها فالتفت فرآها ولم يكن يعرف من شأنها شيئاً ، فعجب لأمرها وأشار الى الجماهير بالسكوت حتى يعلم ماخطبها ، ثم مشى نحوها وقال لها ، أتعلمين أيتها الفتاة من هذا الذى تحمين؟ وما جريمته التى اقترفها؟ فرفعت رأسها اليه وألقت عليه نظرة الليث فى عرينه وقالت له: لاأعلم من أمره شيئاً سوى أنى أحبه ، ولا آذن لأحد أن يناله بمكروه وفىّ بقية رمق من الحياة ، قال إنه ارتكب جريمة الخيانة الكبرى للامة والوطن ، وقد حكم عليه مجلس القضاء بالتعذيب ولا بد من إنفاذ حكمه ، قالت ان الحب فوق العدل وفوق القانون وفوق كل شىء فى العالم ، فمزقونى إرباً إرباً لتستطيعوا أن تصلوا اليه

فلمعت فى ثغر قسطنطين ابتسامة فى وسط هذه الدجنة الحالكة من الهموم والاحزان وضمها الى نفسه وقال لها :شكراً لك ياميلتزا فقد أحييت نفسى الميتة وسريت عنى همومى وآلامى، ذودى عنى ياصديقتى ، وصونى وجهى من العار الذى يريدون أن يلصقوه به ، فلم يبق لى فى العالم من يرحمنى أو يعطف علىّ سواك

وأخذ الجماهير يصيحون : اقتلوهما معاً ، مزقوا جسميهما بالسيوف ، انثروا اشلاءهما فى الفضاء ، ثم تدفّعوا نحوهما تدفع

الصخور الهائلة من أعالي الجبال، فصاحت ميلتزا : أيتها الوحوش الضارية ، والخلائق الساقطة ، مهما كثر عددكم ، وعظمت قوتكم ، فانكم لن تستطيعوا أن تصلوا اليه أو تلحقوا به اهانة من الاهانات التى تضمرونها فى نفوسكم ، فان أبيتم الا أن تفعلوا فاعلموا أننى أنا الفتاة الضعيفة المسكينة قادرة على أن أخلصه من أيديكم ، فلم يحفلوا بكلامها ولم يفهموا غرضها واستمروا فى اندافعهم وتدفقهم

وهنا حدث ذلك الحادث الهائل الذى شخصت له الابصار ، وذهلت له العقول وجمدت لمنظره الدماء فى العروق ، فقد علمت ميلتزا أن القضاء واقع لامفر منه ، وأن القوم لابد بالغون من قسطنطين مايريدون ، وأن لاطاقة لها بحمايته والذود عنه ، وها لها هولاً عظيما وكبر فى نفسها أنّ ذلك الوجه الشريف المتلألئ بنور الفضيلة والكرم والطهارة والبراءة يصبح هدفاً دنيئاً لهؤلاء الغوغاء الثائرين ، يلطمه من يلطم ، ويبصق عليه من يبصق ، فلما أصبحوا على مقربة منها ، ولم يبق بينهم وبينها الا بضع وثبات ، حنَت عليه وهمست فى أذنه قائلة : فى استطاعتك ياسيدى أن تنجى نفسك بكلمة واحدة تعترف فيها بكل شىء ، فرفع طرفه الى السماء ، ثم ألقاه على تمثال أبيه ، ثم نظر اليها نظرة دامعة حزينة وقال : « لا أستطيع »

فجردت من منطقتها خنجرها الذى كانت قد استهدته اياه فيما مضى ورفعته فى الهواء ثم طعنته به في صدره طعنة نجلاء وهى تقول : مت شريفاً أيها الرجل العظيم كما عشت شريفاً ، وسأتبعك الى سمائك التى تصعد اليها ، فسقط مضرجاً بدمائه وهو يقول بصوت ضعيف متقطع : شكراً لك ياميايتزا

وكان القوم قد بلغوا موقفهما ، فرفعت الخنجر مرة أخرى وطعنت به نفسها ، فترنحت قليلا ثم سقطت على مقربة منه ، وكان لايزال يعالج السكرة الاخيرة ، ففتح عينيه فرآها فأخذ يسحب نفسه سحباً حتى بلغ مصرعها ، فألقى يده عليها وظل يجذبها نحوه كأنما يحاول أن يضمها الى نفسه فلم يستطع فسقط رأسه على صدرها فشعرت به فضاءت مابين شفتيها ابتسامة ضئيلة لم تلبث أن انطفأت وتغلغلت فى ظلمات الموت ، وظلا على هذه الحالة حتى فاضت نفساهما

فأثر هذا المنظر الرهيب فى نفوس الجماهير وسكنوا فى مواقفهم سكوناً عميقاً لاتتخلله نأمة ولا حركة ، وظلوا على ذلك ساعة حتى نطق الملك بصوت خشن أجش تخالطه رنة الحزن والأسف قائلا : أيها المسيحيون ، صلوا جميعاً لهذين البائسين الشقيين واسألوا الله لهما الرحمة والغفران

ثم رفع قلنسوته وجثا على ركبتيه فرفع القوم قبعاتهم وجثوا حول الجثتين وأخذوا يتلون صلواتهم بنغمة حزينة مؤثرة كأنما هم يبكون عزيزاً عليهم ، أو شهيداً من شهدائهم ، وما فعلوا غير كذلك لو كانوا يعلمون

* * *

ظلت هذه الحقيقة مجهولة لا يعلمها أحد من الناس خمسة وثلاثين عاماً حتى حضر بازيليد الموت فظلت تهذى بها فى مرضها ، وترددها فى يقظتها وأحلامها ، وتتألم لذكراها ألماً شديداً على مسمع من كاهنها وعوادها حتى فاضت روحها ، فعلم الناس ولكن بعد عهد طويل وبعد أن تبدلت شؤون البلقان غير شؤونه أن « قسطنطين برانكومير » أشرف الناس وأفضلهم ، وأعظمهم وطنية واخلاصاً ، لانه ضحى أباه فى سبيل انقاذ وطنه ، ثم ضحى نفسه فى سبيل انقاذ شرف أبيه ، فبلغ فى وطنيته وشرف نفسه الغاية التى لا غاية وراءها

تمت

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00386343
A.U.B. LIBRARY